

من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعاً \* وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لنفيقاً \* أي: لست أبا الرسول المؤيد بالآيات، أول رسول كذب الناس، فلقد أرسلنا قبلك موسى بن عمران الكليم، إلى فرعون وقومه، وأتيناها \* تسع آيات بينات \* كل واحدة منها تكفي لمن قصده اتباع الحق، كالحية، والعصا، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والزرز، وقلق البحر.

فإن شككت في شيء من ذلك \* فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون \* مع هذه الآيات \* إني لأظنك يا موسى مسحوراً \*.

ذ \* قال \* له موسى \* لقد علمت \* يا فرعون \* ما أنزل هؤلاء \* الآيات \* إلا رب السموات والأرض بصائر \* منه لعباده، فليس قولك هذا بالحققة، وإنما قلت ذلك ترويحاً على قومك، واستخفافاً لهم.

\* وإني لأظنك يا فرعون مشهوراً \* أي: محموراً، ملقى في العذاب، لك الويل والدم واللعة.

\* فأراد \* فرعون \* أن يستفزه من الأرض \* أن: يجلبهم ويخرجهم منها. \* فأغرقناه ومن معه جميعاً \* وأورثنا بني إسرائيل أرضهم وديارهم.

ولهذا قال: \* وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لنفيقاً \* أي: جميعاً، ليجازي كل عامل بعمله.

\* ١٠٥ \* \* وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً \* أي: وبالحق أنزلنا هذا القرآن الكريم، لأمر العباد ونهيتهم، وثوابهم وعقابهم، \* وبالحق نزل \* أي: بالصدق والعدل والحفظ من كل شيطان رجيم \* وما أرسلناك إلا مبشراً \* من أطاع الله

بالثواب العاجل والآجل \* ونذيراً \* لن عصى الله بالعقاب العاجل والآجل، ويلزم من ذلك بيان ما بشر به وأنذر.

\* ١٠٦ - ١٠٩ \* \* وقرآننا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً \* قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً \* ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً \* ويجزؤون للأذقان يسكون ويزيدهم خشوعاً \* أي: وأنزلنا هذا القرآن مفزقاً، فارقاً بين الهدى والضلال، والحق والباطل. \* لتقرأه على الناس على مكث \* أي: على مهل، ليتدبروه ويتفكروا في معانيه، ويستخرجوا علومه.

\* ونزلناه تنزيلاً \* أي: شيئاً فشيئاً، مفزقاً في ثلاث وعشرين سنة.

\* ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً \* فإذا تبين أنه الحق، الذي لا شك فيه ولا ريب، بوجه من الوجوه ف:

\* قل: \* لمن كذب به وأعرض عنه: \* آمنوا به أو لا تؤمنوا \* فليس لله حاجة فيكم، ولستم بضاربه شيئاً، وإنما ضرر ذلك عليكم، فإن الله عبادة غيركم، وهم الذين آتاهم الله العلم النافع: \* إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً \* أي: يتأثرون به غاية التأثر، ويخضعون له.

\* ويقولون سبحان ربنا \* عما لا يليق بجلاله، مما نسبه إليه المشركون. \* إن كان وعد ربنا \* بالبعث والجزاء بالأعمال \* لمفعولاً \* لا خُلف فيه ولا شك.

\* ويجزؤون للأذقان \* أي: على وجوههم \* يسكون ويزيدهم \* القرآن \* خشوعاً \*.

وهؤلاء كالذين من الله عليهم من مؤمني أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وغيره، ممن آمن<sup>(١)</sup> في وقت النبي ﷺ، وبعد ذلك.



\* ١١٠ - ١١١ \* \* قل ادعوا الله أو

ادعوا الرحمن أي ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً \* يقول تعال لعباده:

\* ادعوا الله أو ادعوا الرحمن \* أي: أيما شئتم. \* إني ما تدعوا فله الأسماء الحسنى \* أي: ليس له اسم غير حسن، حتى ينهي عن دعائه به، بل أي: اسم دعوتوه به، حصل به المقصود، والذي ينبغي أن يدعى في كل مطلوب، بما يناسب ذلك الاسم.

\* ولا تجهر بصلاتك \* أي: قراءتك \* ولا تخافت بها \* فإن في كل من الأمرين محذوراً. أما الجهر، فإن المشركين المكذبين به إذا سمعوه سيؤه، وسبوا من جاء به.

وأما المخافتة، فإنه لا يحصل المقصود لمن أراد استماعه مع الإخفاء. \* وابتغ بين ذلك \* أي: بين الجهر والإخفات \* سبيلاً \* أي: توسط فيما بينهما.

\* وقل الحمد لله الذي \* له الكمال والشناء والحمد والمجد من جميع الوجوه، المنزه عن كل آفة ونقص.



الذين قالوا اتخذ الله ولداً \* ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً \* فلعلك باخع نفسك على آثامهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً الحمد لله هو الثناء عليه بصفاته، التي هي كلها صفات كمال، وينعمه الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، وأجل نعمه على الإطلاق، إنزاله الكتاب العظيم على عبده ورسوله، محمد ﷺ فحمد نفسه، وفي ضمنه إرشاد العباد ليحمدوه على إرسال الرسول إليهم، وإنزال الكتاب عليهم، ثم وصف هذا الكتاب بوصفين مشتملين، على أنه الكامل من جميع الوجوه، وهما نفي العوج عنه، وإثبات أنه قيم مستقيم، فنفي العوج يقتضي أنه ليس في أخباره كذب، ولا في أوامره ونواهيه ظلم ولا عبث، وإثبات الاستقامة يقتضي أنه لا يخبر ولا يأمر إلا بأجل الإخبارات، وهي الأخبار، التي تملأ القلوب معرفة وإيماناً وعتقاً، كالإخبار بأسماء الله وصفاته وأفعاله، ومنها الغيوب المتقدمة والمتأخرة، وأن أوامره ونواهيه تزكي النفوس،

﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾  
 ﴿وكبره تكبيراً﴾ أي: عظمه وأجله بالإخبار بأوصافه العظيمة، وبالثناء عليه، بأسمائه الحسنى، وبتمجيده بأفعاله القدسة، وبتعظيمه وإجلاله بعبادته وحده لا شريك له، وإخلاص الدين كله له.

تم تفسير سورة الإسراء والله الحمد والمنة والثناء الحسن على يد جامعهم عبد الرحمن ابن ناصر بن عبد الله بن سعدي غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين وصلّى الله على محمد وسلم تسليماً وذلك في ٧ جمادى الأولى ١٣٤٤.

المجلد الخامس من تفسير الكريمة الرحمن من تفسير كلام المنان لجامعه الفقير إلى الله عبد الرحمن بن ناصر السعدي<sup>(١)</sup>

### تفسير سورة الكهف وهي مكية

﴿١ - ٦﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً \* قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً \* ما كثر في فيه أبداً \* وينذر

الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك﴾ بل الملك كله هو الواحد القهار، فالعالم العلوي والسفلي، كلهم مملوكون لله، ليس لأحد من الملك شيء.

﴿ولم يكن له ولي من الدن﴾ أي: لا يتولى أحداً من خلقه ليتعزز به ويعاونه، فإنه الغني الحميد، الذي لا يحتاج إلى أحد من المخلوقات، في الأرض ولا في السموات، ولكنه يتخذ أولياء إحساناً منه إليهم ورحمة بهم

﴿١﴾ كان الشيخ - رحمه الله - قد طلب في ١٣٧٤ / ٢ / ٣١ من الشيخ محمد نصيف - رحمه الله - أن يختار من يتولى طباعة خمسة الآف نسخة من المجلد الخامس من التفسير، وذكر محب الدين الخطيب والشيخ حامد الفقي - رحمهما الله - فبعث الشيخ محمد نصيف - رحمه الله - بالكتاب إلى الأستاذ: محب الدين الخطيب لطباعته، وطبع بالفعل عام ١٣٧٥هـ، وقد جعل الشيخ - رحمه الله - لهذا الجزء مقدمة، واتبه بخاتمة فيها أصول وكتابات من أصول وكتابات التفسير، وهذه هي مقدمة الشيخ لهذا الجزء، وأما الخاتمة فقد جعلتها في آخر التفسير، قال - رحمه الله -:

(بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله، وأصلي وأسلم على محمد وآله وصحبه. أما بعد فلما كان علم التفسير للقرآن أشرف العلوم على الإطلاق وأهمها وأحقها بتحقيق معانيه وفهم مبانيه، لكونه تنزيلاً من حكيم حميد أنزله هدى ورحمة للعباد وتبياناً لكل شيء وتفصيلاً لكل ما يحتاجونه في دينهم ودنياهم وأخراهم، وكان من خاصة علم القرآن أن فهم بعضه وطائفة منه يعين على فهم جميعه، لأن القرآن من أوله إلى آخره يدور على تقرير الأصول النافعة والحقائق والشرايع الكبار والأحكام الحسنة والمعائد الصحيحة، ويوجه العباد إلى كل خير ويحذرهم من كل شر، ويعيد تقرير هذه الأمور ويبيدها بأساليب متنوعة وتصاريف مناسبة في غاية اليسر والسهولة والإحكام والحسن الذي لا مزيد عليه. وقد تكرر عليّ السؤال من كثير من الأصحاب في نشر تفسيرنا هذا جميعه والنحو لما يروونه من الفائدة الكبيرة، فاعتذرت بأن ذلك يصعب جداً لأنه مبسوط، وأيضاً في هذه الأوقات قلت رغبات الناس في الكتب المطولة، لذلك أحببت إجابتهم لنشر بعض ما طلبوا وهو الاقتصار على جزء واحد من أجزاء هذا التفسير، ووقع الاختيار على الجزء الأوسط من سورة الكهف إلى آخر النمل، فما لا يحصل جميعه لا يترك جميعه. وأرجو الله وأسأله أن يجعل ذلك خالصاً لوجهه، نافعاً لنا ولإخواننا، وأن يمدنا بعونه وعنايته وتوفيقه إنه جواد كريم رءوف رحيم. واتبعت بكتابات وأصول من كتابات التفسير لاستدراك ما نلعه يفوت القارئ في غير هذا الجزء، فإن الأصول والكتابات تبنى عليها الفروع والجزئيات، ويحصل بها من النفع والفائدة على اختصارها ما لا يحصل في الكلام الطويل، وهو حسبتا ونعم الوكيل.

في ب: مقيم.



فتنة قومهم لهم، ﴿فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة﴾ أي: تثبتنا بها وتحفظنا من الشر، وتوفقنا للخير ﴿وهي﴾ لنا من أمرنا رشداً ﴿أي: يسر لنا كل سبب موصل إلى الرشداً، وأصلح لنا أمر ديننا ودياننا، فجمعوا بين السعي والفرار من الفتنة، إلى محل يمكن الاستخفاء فيه، وبين تضرعهم وسؤالهم لله تيسير أمورهم، وعدم اتكالهم على أنفسهم وعلى الخلق، فلذلك استجاب الله دعاءهم، وقبض لهم ما لم يكن في حسابهم، قال: ﴿فضربنا على آذانهم في الكهف﴾ أي: أنمناهم ﴿سنتين عدداً﴾ وهي ثلاث مئة سنة وتسع سنين، وفي النوم المذكور حفظ لقلوبهم من الاضطراب والخوف، وحفظ لهم من قومهم، وليكون آية بينة، ﴿ثم بعثناهم﴾ أي: من نومهم ﴿لنعلم أي: الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً﴾ أي: قال تعالى: ﴿وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم﴾ الآية، وفي العلم بمقدار لبثهم، ضبط للحساب، ومعرفة لكمال قدرة الله تعالى وحكمته ورحمته، فلو استمروا على نومهم، لم يحصل الاطلاع على شيء من ذلك من قصتهم.

﴿١٣-١٤﴾ ﴿نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى﴾ وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذا شططاً﴾ هذا شروع في تفصيل قصتهم، وأن الله يقصها على نبيه بالحق والصدق، الذي ما فيه شك ولا شبهة بوجه من الوجوه، ﴿إنهم فتية آمنوا بربهم﴾ وهذا من جموع القلة، يدل ذلك على أنهم دون العشرة، ﴿آمنوا﴾ بالله وحده لا شريك له من دون قومهم، فشكر الله لهم إيمانهم، فزادهم هدى، أي: بسبب أصل اهتدائهم إلى الإيمان، زادهم الله من الهدى، الذي هو العلم النافع، والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿ويزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾.

الدنيا منزل عبور، لا محل حبور، وشقة سفر، لا منزل إقامة، فبذل جهده في معرفة ربه، وتنفيذ أوامره، وإحسان العمل، فهذا بأحسن المنازل عند الله، وهو تحقيق منه بكل كرامة ونعيم، وسرور وتكريم، فنظر إلى باطن الدنيا، حين نظر المغتر إلى ظاهرها، وعمل لآخرته، حين عمل البطال لديناه، فشتان ما بين الفريقين، وما أبعد الفرق بين الطائفتين!!

﴿٩-١٢﴾ ﴿أم حسبت أن أصحاب الكهف﴾

أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا \* إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهتيء لنا من أمرنا رشداً \* فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً \* ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً وهذا الاستفهام بمعنى النفي والنهي. أي: لا تظن أن قصة أصحاب الكهف، وما جرى لهم، غريبة على آيات الله، وبديعة في حكمته، وأنه لا نظير لها، ولا يجانس لها، بل الله تعالى من الآيات العجيبة الغريبة ما هو كثير، من جنس آياته في أصحاب الكهف وأعظم منها، فلم يزل الله يُري عباده من الآيات في الآفاق وفي أنفسهم، ما يتبين به الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وليس المراد بهذا النفي عن أن تكون قصة أصحاب الكهف من العجائب، بل هي من آيات الله العجيبة، وإنما المراد، أن جنسها كثير جداً، فالوقوف معها وحدها، في مقام العجب والاستغراب، نقص في العلم والعقل، بل وظيفة المؤمن التفكير بجميع آيات الله، التي دعا الله العباد إلى التفكير فيها، فإنها مفتاح الإيمان، وطريق العلم والإيقان. وأضافهم إلى الكهف، الذي هو الغار في الجبل، والرقيم، أي: الكتاب الذي قد رقت فيه أسماؤهم وقصتهم، لملازمتهم له دهرأ طويلاً، ثم ذكر قصتهم مجملة، وفصلها بعد ذلك فقال: ﴿إذ أوى الفتية﴾ أي: الشباب، ﴿إلى الكهف﴾ يريدون بذلك التحصن والتحرز من



وأشجار، وأنهار، وزروع، وثمار، ومناظر بهيجة، ورياض أنيقة، وأصوات شجية، وصور مليحة، وذهب فضة، وخيل وإبل ونحوها، الجميع جعله الله زينة لهذه الدار، فتنة واختباراً. ﴿لنبلوهم أيمم أحسن عملاً﴾ أي: أخلصه وأصوبه، ومع ذلك سيجعل الله جميع هذه المذكورات، فانية مضمحلة، وزائلة منقضية، وستعود الأرض صعيداً جرزاً قد ذهبت لذاتها، وانقطعت أنهارها، واندرست آثارها، وزال نعيمها، هذه حقيقة الدنيا، قد جلاها الله لنا كأنها رأي عين، وحذرنا من الاغترار بها، ورجبنا في دار يدوم نعيمها، ويسعد مقيمها، كل ذلك رحمة بنا، فاعتز بزرخرف الدنيا وزينتها، من نظر إلى ظاهر الدنيا، دون باطنها، فصحبوا الدنيا صحبة البهائم، وتمتعوا بها تمتع السوائم، لا ينظرون في حق ربهم، ولا يهتمون لمعرفته، بل همهم تناول الشهوات، من أي وجه حصلت، وعلى أي حالة اتفقت، فهو لاء إذا حضر أحدهم الموت، قلق لخراب ذاته، وفوات لذاته، لا لما قدمت يده من التفریط والسيئات.

وأما من نظر إلى باطن الدنيا، وعلم المقصود منها ومنه، فإنه تناول منها، ما يستعين به على ما خلق له، وانتهم الفرصة في عمره الشريف، فجعل

المكث، وذلك من آيات الله الدالة على قدرته ورحمته بهم، وإجابة دعائهم وهدايتهم حتى في هذه الأمور، ولهذا قال: ﴿من يهد الله فهو المهتد﴾ أي: لا سبيل إلى نيل الهداية إلا من الله، فهو الهادي المرشد لمصالح الدارين، ﴿ومن يضل فلن تجد له ولياً مرشداً﴾ أي: لا تجد من يتولاه ويديره، على ما فيه صلاحه، ولا يرشده إلى الخير والصلاح، لأن الله قد حكم عليه بالضلال، ولا راد لحكمه.

﴿وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود﴾ أي: تحسبهم أيها الناظر إليهم [كأنهم] (٣) أيقاظ، والحال أنهم نيام، قال المفسرون: وذلك لأن أعينهم مفتوحة، لئلا تفسد، فالناظر إليهم يحسبهم أيقاظاً، وهم رقود، ﴿ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال﴾ وهذا أيضاً من حفظه لأبدانهم، لأن الأرض من طبيعتها أكل الأجسام المتصلة بها، فكان من قدر الله، أن قلبهم على جنوبهم يميناً وشمالاً، بقدر ما لا تفسد الأرض أجسامهم، والله تعالى قادر على حفظهم من الأرض، من غير قلب، ولكنه تعالى حكيم، أراد أن تجري سنته في الكون، ويربط الأسباب بمسبباتها.

﴿وكلبهم باسط ذراعيه بالصيد﴾ أي: الكلب الذي كان مع أصحاب الكهف، أصابه ما أصابهم من النوم وقت حراسته، فكان باسطاً ذراعيه بالصيد، أي: الباب، أو فئانه، هذا حفظهم من الأرض. وأما حفظهم من الآدميين، فأخبر أنه حماهم بالرعب، الذي نشره الله عليهم، فلو اطلع عليهم أحد، لامتلأ قلبه رعباً، وولى منهم فراراً، وهذا الذي أوجب أن يبقوا كل هذه المدة الطويلة، وهم لم يعثر عليهم أحد، مع قربهم من المدينة جداً، والدليل على قربهم، أنهم لما استيقظوا، أرسلوا أحدهم يشتري لهم طعاماً من المدينة، وبقوا في انتظاره، فدل ذلك على شدة قربهم منها.

يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقاً﴾ أي: قال بعضهم لبعض، إذ حصل لكم اعتزال قومكم في أجسامكم وأديانكم، فلم يبق إلا النجاء من شرهم، والتسبب بالأسباب المفضية لذلك، لأنهم لا سبيل لهم إلى قتالهم، ولا بقاتهم (٢) بين أظهرهم، وهم على غير دينهم، ﴿فأووا إلى الكهف﴾ أي: انضموا إليه واختفوا فيه ﴿ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقاً﴾ وفيما تقدم، أخبر أنهم دعوه بقولهم: ﴿ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً﴾ فجمعوا بين التبري من حولهم وقوتهم، والاتجاء إلى الله في صلاح أمرهم، ودعائه بذلك، وبين الثقة بالله أنه سيفعل ذلك، لا جرم أن الله نشر لهم من رحمته، وهيأ لهم من أمرهم مرفقاً، فحفظ أديانهم وأبدانهم، وجعلهم من آياته على خلقه، ونشر لهم من الثناء الحسن، ما هو من رحمته بهم، ويسر لهم كل سبب، حتى المحل الذي ناموا فيه، كان على غاية ما يمكن من الصيانة، ولهذا قال:

﴿١٧ - ١٨﴾ ﴿وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه ذلك من آيات الله من يهد الله فهو المهتد ومن يضل فلن تجد له ولياً مرشداً \* وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً﴾ أي: حفظهم الله من الشمس فيسر لهم غاراً إذا طلعت الشمس تميل عنه يمينا، وعند غروبها تميل عنه شمالاً، فلا ينالهم حرها فتفسد أبدانهم بها، ﴿وهم في فجوة منه﴾ أي: من الكهف أي: مكان متسع، وذلك ليطرفهم الهواء والنسيم، ويزول عنهم الوخم والتأذي بالمكان الضيق، خصوصاً مع طول

﴿وربطنا على قلوبهم﴾ أي: صبرناهم وثبتناهم، وجعلنا قلوبهم مطمئنة في تلك الحالة المزعجة، وهذا من لطفه تعالى بهم وبره، أن وفقهم للإيمان والهدى، والصبر والثبات، والطمأنينة.

﴿إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض﴾ أي: الذي خلقنا ورزقنا، وديرنا وربانا، هو خالق السموات والأرض، المنفرد بخلق هذه المخلوقات العظيمة، لا تلك الأوثان والأصنام، التي لا تخلق ولا ترزق، ولا تملك نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فاستدلوا بتوحيد الربوبية على توحيد الإلهية، ولهذا قالوا: ﴿لن ندعو من دونه إلهاً﴾ أي: من سائر المخلوقات ﴿لقد قلنا إذا﴾ أي: إن دعوتنا معه آلهة، بعد ما علمنا أنه الرب الإله، الذي لا تجوز ولا تنبغي العبادة إلا له ﴿مشططاً﴾ أي: ميلاً عظيماً عن الحق، وطريقاً بعيدة عن الصواب، فجمعوا بين الإقرار بتوحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، والتزام ذلك، وبيان أنه الحق وما سواه باطل، وهذا دليل على كمال معرفتهم بربهم، وزيادة الهدى من الله لهم.

﴿١٥﴾ ﴿هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ لما ذكروا ما من الله به عليهم من الإيمان والهدى، التفاتوا (١) إلى ما كان عليه قومهم، من اتخاذ الآلهة من دون الله، فمقتوهم، وبنوا أنهم ليسوا على يقين من أمرهم، بل هم في غاية الجهل والضلال فقالوا: ﴿لولا يأتون عليهم بسلطان بين﴾ أي: بحجة وبرهان، على ما هم عليه من الباطل، ولا يستطيعون سبيلاً إلى ذلك، وإنما ذلك افتراء منهم على الله وكذب عليه، وهذا أعظم الظلم، ولهذا قال: ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾.

﴿١٦﴾ ﴿وإذ اعتزلتموهم وما

(١) في ب: والتقوى وهو تصحيف. (٢) في النسختين: ولا بقاؤهم. (٣) في النسختين: كأنه.

أطلع الناس على حال أهل الكهف، وذلك - والله أعلم - بعدما استيقظوا، وبعثوا أحدهم يشتري لهم طعاماً، وأمروه بالاستخفاء والإخفاء، فأراد الله أمراً فيه صلاح للناس، وزيادة أجر لهم، وهو أن الناس رأوا منهم آية من آيات الله، المشاهدة بالعيان، على أن وعد الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا بُد، بعدما كانوا يتنازعون بينهم أمرهم، فمن مثبت للوعد والجزاء، ومن ناف لذلك، فجعل قصتهم زيادة بصيرة ويقين للمؤمنين، وحنة على الجاحدين، وصار لهم أجر هذه القضية، وشهر الله أمرهم، ورفع قدرهم حتى عظمهم الذين اطلعوا عليهم.

و ﴿قالوا ابنوا عليهم بنياناً﴾ الله أعلم بحالهم ومآلهم، وقال من غلب على أمرهم، وهم الذين لهم الأمر:

﴿لنتخذن عليهم مسجداً﴾ أي: نعبد الله تعالى فيه، ونذكر به أحوالهم، وما جرى لهم، وهذه الحالة محظورة، نهي عنها النبي ﷺ، وذم فاعليها، ولا يدل ذكرها هنا على عدم ذمها، فإن السياق في شأن تعظيم أهل الكهف والثناء عليهم، وأن هؤلاء وصلت بهم الحال إلى أن قالوا: ابنوا عليهم مسجداً، بعد خوف أهل الكهف الشديد من قومهم، وحذرهم من الاطلاع عليهم، فوصلت الحال إلى ما ترى.

وفي هذه القصة، دليل على أن من فرّ بدينه من الفتن سلمه الله منها. وأن من حرص على العافية عافاه الله ومن أوى إلى الله، آواه الله، وجعله هداية لغيره، ومن تحمل الذل في سبيله وابتغاء مرضاته، كان آخر أمره وعاقبته العز العظيم من حيث لا يحتسب ﴿وما عند الله خير للأبرار﴾.

﴿٢٢﴾ ﴿سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً

الرجم بالحجارة، فيقتلونهم أشنع قتلة، لحنقهم عليهم وعلى دينهم، وإما أن يفتنوه عن دينهم، ويردوهم في ملتهم، وفي هذه الحال، لا يفلحون أبداً، بل يحسرون في دينهم ودنياهم وأخراهم، وقد دلت هاتان الآيتان على عدة فوائد:

منها: الحث على العلم، وعلى المباحثة فيه، لكون الله بعثهم لأجل ذلك.

ومنها: الأدب فيمن اشتبه عليه العلم، أن يرده إلى عالمه، وأن يقف عند حده.

ومنها: صحة الوكالة في البيع والشراء، وصحة الشركة في ذلك.

ومنها: جواز أكل الطيبات، والمطاعم اللذيذة، إذا لم تخرج إلى حد الإسراف النهي عنه لقوله: ﴿فلينظر أيها أذكى طعاماً فليأتكم برزق منه﴾. وخصوصاً إذا كان الإنسان لا يلائمه إلا ذلك ولعل هذا عمدة كثير من المفسرين، القائلين بأن هؤلاء أولاد ملوك، لكونهم أمروه بأزكى الأطعمة، التي جرت عادة الأغنياء الكبار بتناولها.

ومنها: الحث على التحرز، والاستخفاء، والبعد عن مواقع الفتن في الدين، واستعمال الكتمان في ذلك على الإنسان وعلى إخوانه في الدين.

ومنها: شدة رغبة هؤلاء الفتية في الدين، وفرارهم من كل فتنة، في دينهم، وتركهم أوطانهم في الله.

ومنها: ذكر ما اشتمل عليه الشر من المضار والمفاسد، الداعية لبغضه، وتركه، وأن هذه الطريقة، هي طريقة المؤمنين المتقدمين والمتأخرين، لقولهم: ﴿ولن تفلحوا إذا أبداً﴾

﴿٢١﴾ ﴿وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنياناً ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً﴾ يخبر الله تعالى، أنه

﴿١٩ - ٢٠﴾ ﴿وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحداً \* إنهم إن يظهروا عليكم يرجوكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذا أبداً﴾ يقول تعالى: ﴿وكذلك بعثناهم﴾ أي: من نومهم الطويل ﴿ليتساءلوا بينهم﴾ أي: ليتباحثوا للوقوف على الحقيقة من مدة لبثهم.

﴿قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم﴾ وهذا مبني على ظن القائل، وكأنهم وقع عندهم اشتباه في طول مدتهم، فلماذا ﴿قالوا ربكم أعلم بما لبثتم﴾. فردوا العلم إلى المحيط علمه بكل شيء، جملة وتفصيلاً، ولعل الله تعالى - بعد ذلك - أطلعهم على مدة لبثهم، لأنه بعثهم ليتساءلوا بينهم، وأخبر أنهم تساءلوا، وتكلموا بمبلغ ما عندهم، وصار آخر أمرهم الاشتباه، فلا بد أن يكون قد أخبرهم يقيناً، علمنا ذلك من حكمتهم في بعثهم، وأنه لا يفعل ذلك عبثاً. ومن رحمته بمن طلب علم الحقيقة في الأمور المطلوب علمها، وسعى لذلك ما أمكنه، فإن الله يوضح له ذلك، وبما ذكر فيما بعده من قوله: ﴿وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها﴾ فلو لا أنه حصل العلم بحالهم، لم يكونوا دليلاً على ما ذكر، ثم إنهم لما تساءلوا بينهم، وجرى منهم ما أخبر الله به، أرسلوا أحدهم بورقهم، أي: بالدرهم، التي كانت معهم، ليشتري لهم طعاماً يأكلونه، من المدينة التي خرجوا منها، وأمروه أن يتخير من الطعام أزكاه، أي: أطيبه وألذّه، وأن يتلطف في ذهابه وشرائه وإيابه، وأن يحتفي في ذلك، ويخفي حال إخوانه، ولا يشعرن بهم أحداً. وذكروا المحذور من اطلاع غيرهم عليهم، وظهورهم عليهم، أنهم بين أمرين، إما

ولا تستفت فيهم منهم أحداً ﴿ تجبر تعالي عن اختلاف أهل الكتاب في عدة أصحاب الكهف، اختلافاً صادراً عن رجمهم بالغيب، وتقولهم بما لا يعلمون، وأنهم فيهم على ثلاثة أقوال:

منهم: من يقول: ثلاثة، رابعهم كلبهم، ومنهم من يقول: خمسة، سادسهم كلبهم. وهذا القولان، ذكر الله بعدهما، أن هذا رجم منهم بالغيب، فدل على بطلانها.

ومنهم من يقول: سبعة، وثامنهم كلبهم، وهذا - والله أعلم - الصواب، لأن الله أبطل الأولين ولم يطله، فدل على صحته، وهذا من الاختلاف الذي لا فائدة تحته، ولا يحصل بمعرفة عددهم مصلحة للناس، دينية ولا دنيوية، ولهذا قال تعالي:

﴿ قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل ﴾ وهم الذين أصابوا الصواب وعلموا إصابتهم. ﴿ فلا تمار ﴾ أي: تجادل وتجاد فيهم إلا مراء ظاهراً ﴿ أي: مبنياً على العلم واليقين، ويكون أيضاً فيه فائدة، وأما المارة المبنية على الجهل والرجم بالغيب، أو التي لا فائدة فيها، إما أن يكون الخصم معانداً، أو تكن المسألة لا أهمية فيها، ولا تحصل فائدة دينية بمعرفتها، كعدد أصحاب الكهف ونحو ذلك، فإن في كثرة المناقشات فيها، والبحوث المتسلسلة، تضييعاً للزمان، وتأثيراً في مودة القلوب بغير فائدة.

﴿ ولا تستفت فيهم ﴾ أي: في شأن أهل الكهف ﴿ منهم ﴾ أي: من أهل الكتاب ﴿ أحداً ﴾ وذلك لأن مبنى كلامهم فيهم على الرجم بالغيب والظن، الذي لا يغني من الحق شيئاً، ففيها دليل على المنع من استفتاء من لا يصلح للفتوى، إما لقصوره في الأمر المستفتى فيه، أو لكونه لا يبالي

بما تكلم به، وليس عنده ورع يحجزه، وإذا نهي عن استفتاء هذا الجنس، فنهيه هو عن الفتوى، من باب أولى وأحرى.

وفي الآية أيضاً، دليل على أن الشخص، قد يكون منهيأ عن استفتاءه في شيء دون آخر. فيستفتى فيما هو أهل له، بخلاف غيره، لأن الله لم ينه عن استفتائهم مطلقاً، إنما نهي عن استفتائهم في قصة أصحاب الكهف، وما أشبهها.

﴿ ٢٣ - ٢٤ ﴾ ﴿ ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً \* إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً ﴾ هذا النهي كغيره، وإن كان لسبب خاص وموجهاً للرسول ﷺ، فإن الخطاب عام للمكلفين، فنهى الله أن يقول العبد في الأمور المستقبلية: «إني فاعل ذلك» من دون أن يقترنه بمشيئة الله، وذلك لما فيه من المحذور، وهو:

الكلام على الغيب المستقبل، الذي لا يدري هل يفعله أم لا؟ وهل يكون أم لا؟ وفيه رد الفعل إلى مشيئة العبد استقلالاً، وذلك عذور محذور، لأن المشيئة كلها لله ﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ ولما في ذكر مشيئة الله، من تيسير الأمر وتسهيله، وحصول البركة فيه، والاستعانة من العبد لربه، ولما كان العبد بشراً، لا بد أن يسهو <sup>(١)</sup> فيترك ذكر المشيئة، أمره الله أن يستثني بعد ذلك، إذا ذكر، ليحصل المطلوب، ويندفع المحذور، ويؤخذ من عموم قوله: ﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾ الأمر

بذكر الله عند النسيان، فإنه يزيله، ويذكر العبد ما سها عنه، وكذلك يؤمر الساهي الناسي لذكر الله، أن يذكر ربه، ولا يكون من الغافلين، ولما كان العبد مفتقراً إلى الله في توفيقه للإصابة، وعدم الخطأ في أقواله وأفعاله، أمره الله أن يقول: ﴿ عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً ﴾



فأمره أن يدعو الله ويرجوه، ويشق به أن يهديه لأقرب الطرق الموصلة إلى الرشيد. وحرى بعبد تكون هذه حاله، ثم يبذل جهده، ويستفرغ وسعه في طلب الهدى والرشد، أن يوفق لذلك، وأن تأتيه المعونة من ربه، وأن يسدده في جميع أموره.

﴿ ٢٥ - ٢٦ ﴾ ﴿ ولبثوا في كهفهم ثلاث مئة سنين وازدادوا تسماً \* قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السماوات والأرض أبصر به وأسمع ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحداً ﴾ لما نهاه الله عن استفتاء أهل الكتاب، في شأن أهل الكهف، لعدم علمهم بذلك، وكان الله عالم الغيب والشهادة، العالم بكل شيء، أخبره بمدة لبثهم، وأن علم ذلك عنده وحده، فإنه من غيب السماوات والأرض، وغيبها مختص به، فما أخبر به عنها على السنة رسله، فهو الحق اليقين، الذي لا يشك فيه، وما لا يطلع رسله عليه، فإن أحداً من الخلق لا يعلمه.

وقوله: ﴿ أبصر به وأسمع ﴾ تعجب من كمال سمعه وبصره، وإحاطتهما بالمسموعات والبصريات، بعدما أخبر بإحاطة علمه بالمعلومات. ثم أخبر عن

(١) كذا في ب، وفي أ: يسهي.

لهواه، حيث ما اشتتهت نفسه فعله، وسعى في إدراكه، ولو كان فيه هلاكه وخسرانه، فهو قد اتخذ إليه هواه، كما قال تعالى: ﴿أفأريت من اتخذ إليه هواه وأضله الله على علم﴾ الآية.

﴿وكان أمره﴾ أي: مصالح دينه ودنياه ﴿فرطاً﴾ أي: ضائعة معطلة. فهذا قد نهى الله عن طاعته، لأن طاعته تدعو إلى الاقتداء به، ولأنه لا يدعو إلا لما هو متصف به، ودلت الآية على أن الذي ينبغي أن يطاع، ويكون إماماً للناس، من امتلأ قلبه بمحبة الله، وفاض ذلك على لسانه، فلهج بذكر الله، واتبع مرضي ربه، فقدمها على هواه، فحفظ بذلك ما حفظ من وقته، وصلحت أحواله، واستقامت أفعاله، ودعا الناس إلى ما أمر الله به عليه، فحقيق بذلك، أن يتبع ويجعل إماماً، والصبر المذكور في هذه الآية، هو الصبر على طاعة الله، الذي هو أعلى أنواع الصبر، وبتمامه تتم باقي الأقسام. وفي الآية، استحباب الذكر والدعاء والعبادة طُرْفِي النهار، لأن الله مدحهم بفعله، وكل فعل مدح الله فاعله، دل ذلك على أن الله يحبه، وإذا كان يحبه فإنه يأمر به، ويرغب فيه.

﴿٢٩ - ٣١﴾ ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفعاً﴾ \* إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً \* أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس واستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفعاً﴾ أي: قل للناس يا محمد: هذا الحق من ربكم، أي: قد تبين الهدى من الضلال، والرشد من الغي، وصفات أهل السعادة، وصفات أهل الشقاوة، وذلك بما بينه الله على لسان رسوله، فإذا بان واتضح، ولم يبق فيه شبهة

التغيير والتبديل، فلو كانت ناقصة، لعرض لها ذلك أو شيء منه، وفي هذا تعظيم للقرآن، في ضمنه الترغيب على الإقبال عليه.

﴿ولن نجد من دونه ملتحداً﴾ أي: لن نجد من دون ربك ملجأ تلجأ إليه، ولا معاداً تعوذ به، فإذا تعين أنه وحده الملجأ في كل الأمور، تعين أن يكون هو المألوه المعبود المرغوب إليه، في السراء والضراء، المفتقر إليه في جميع الأحوال، المسؤول في جميع المطالب.

﴿٢٨﴾ ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً﴾ يأمر تعالى نبيه محمداً ﷺ، وغيره أسوته في الأوامر والنواهي - أن يصبر نفسه مع المؤمنين العباد المنيبين ﴿الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾ أي: أول النهار وآخره يريدون بذلك وجه الله، فوصفهم بالعبادة والإخلاص فيها، ففيها الأمر بصحبة الأخيار، ومجاهدة النفس على صحبتهم، ومخالطتهم وإن كانوا فقراء فإن في صحبتهم من الفوائد ما لا يحصى.

﴿ولا تعد عيناك عنهم﴾ أي: لا تتجاوزهم بصرك، وترفع عنهم نظرك.

﴿تريد زينة الحياة الدنيا﴾ فإن هذا ضار غير نافع، قاطع عن المصالح الدينية، فإن ذلك يوجب تعلق القلب بالدنيا، فتصير الأفكار والهواجس فيها، وتزول من القلب الرغبة في الآخرة، فإن زينة الدنيا تروق للناظر، وتسحر العقل، فيغفل القلب عن ذكر الله، ويُقْبِل على اللذات والشهوات، فيضيع وقته، وينفرط أمره، فيخسر الخسارة الأبدية، والندامة السرمدية، ولهذا قال: ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا﴾ غفل عن الله، فعاقبه بأن أغفله عن ذكره.

﴿واتبع هواه﴾ أي: صار تبعاً



انفراده بالولاية العامة والخاصة، فهو الولي الذي يتولى تدبير جميع الكون، الولي لعباده المؤمنين، يخرجهم من الظلمات إلى النور ويسرهم لليسر، ويجنبهم العسر، ولهذا قال: ﴿ما لهم من دونه من ولي﴾. أي: هو الذي تولى أصحاب الكهف، بلطفه وكرمه، ولم يكلمهم إلى أحد من الخلق.

﴿ولا يشرك في حكمه أحداً﴾ وهذا يشمل الحكم الكوني القدرى، والحكم الشرعي الديني، فإنه الحاكم في خلقه، قضاء وقدرًا، وخلقًا وتديراً، والحاكم فيهم بأمره ونهيه، وثوابه وعقابه. ولما أخبر أنه تعالى له غيب السموات والأرض، فليس لمخلوق إليها طريق، إلا من الطريق التي يخبر بها عباده، وكان هذا القرآن، قد اشتمل على كثير من الغيوب، أمر تعالى بالإقبال عليه فقال:

﴿٢٧﴾ ﴿واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن نجد من دونه ملتحداً﴾ التلاوة: هي الاتباع، أي: اتبع ما أوحى الله إليك بمعرفة معانيه وفهمها، وتصديق أخباره، وامتثال أوامره ونواهيها، فإنه الكتاب الجليل، الذي لا مبدل لكلماته، أي: لا تغيير ولا تبدل لصدقها وعدلها، وبلوغها من الحسن فوق كل غاية ﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً﴾ فلتمامها، استحلال علمها

ودلت الآية الكريمة وما أشبهها، على أن الحلية عامة للذكور والإناث، كما ورد في الأحاديث الصحيحة لأنه أطلقها في قوله ﴿يَجْلُونَ﴾ وكذلك الحرير ونحوه.

﴿٣٢ - ٣٤﴾ ﴿واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحققناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً \* كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً وفجرنا خلالهما نهراً \* وكان له ثمر﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: اضرب للناس مثل هذين الرجلين، الشاكر لنعمة الله، والكافر لها، وما صدر من كل منهما، من الأقوال والأفعال، وما حصل بسبب ذلك من العقاب العاجل والأجل، والثواب، ليعتبرا بحالهما، ويتعظوا بما حصل عليهما، وليس معرفة أعيان الرجلين، وفي أي: زمان أو مكان هما فيه فائدة أو نتيجة، فالنتيجة تحصل من قصتهما فقط، والتعرض لما سوى ذلك من التكلف. فأحد هذين الرجلين الكافر لنعمة الله الجليلة، جعل الله له جنتين، أي: بستانين حسنين، من أعناب.

﴿وحققناهما بنخل﴾ أي: في هاتين الجنتين من كل الثمرات، وخصوصاً أشرف الأشجار، العنب والنخل، فالعنب في وسطها، والنخل قد حف بذلك، ودار به، فحصل فيه من حسن المنظر وبهائه، وبروز الشجر والنخل للشمس والرياح، التي تكمل بها الثمار، وتنضج وتتجهر، ومع ذلك جعل بين تلك الأشجار زرعاً، فلم يبق عليهما إلا أن يقال: كيف ثمار هاتين الجنتين؟ وهل لهما ماء يكفيهما؟ فأخبر تعالى أن كلا من الجنتين آتت أكلها، أي: ثمرها وزرعها ضعفين، أي: متضاعفاً ﴿و﴾ أنها ﴿لم تظلم منه شيئاً﴾ أي: لم تنقص من أكلها أدنى شيء، ومع ذلك، فالأنهار في جوانبهما سارحة، كثيرة غزيرة.

﴿وكان له﴾ أي: لذلك الرجل ﴿ثمر﴾ أي: عظيم كما يفيد التذكير، أي: قد استكملت جنتاه ثمارها،

وشره، وعمل الصالحات من الواجبات والمستحبات ﴿إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً﴾ وإحسان العمل: أن يريد العبد العمل لوجه الله، متبعاً في ذلك شرع الله. فهذا العمل لا يضيعه الله، ولا شيئاً منه، بل يحفظه للعاملين، ويوفيههم من الأجر، بحسب عملهم وفضله وإحسانه، وذكر أجرهم بقوله:

﴿أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار يجولون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك﴾. أي: أولئك الموصوفون بالإيمان والعمل الصالح، لهم الجنات العاليات التي قد كثرت أشجارها، فأجنت من فيها، وكثرت أنهارها، فصارت تجري من تحت تلك الأشجار الأنيقة، والمنازل الرفيعة، وحليتهم فيها الذهب، ولباسهم فيها الحرير الأخضر من السندس، وهو الغليظ من الديباج، والإستبرق، وهو مارق منه. متكئين فيها على الأرائك، وهي السرر المزينة، المجدلة بالثياب الفاخرة، فإنها لا تسمى أريكة حتى تكون كذلك، وفي اتكائهم على الأرائك، ما يدل على كمال الراحة، وزوال النصب والتعب، وكون الخدم يسعون عليهم بما يشتهون، وتمام ذلك الخلود الدائم والإقامة الأبدية، فهذه الدار الجلييلة ﴿نعم الثواب﴾ للعاملين ﴿وحسنت مرتفقاً﴾ يرتفقون بها، ويتمتعون بما فيها، بما تشتهيه الأنفس وتلد الأعين، من الحيرة والسرور، والفرح الدائم، واللذات المتواترة، والنعم المتوافرة، وأي: مرتفق أحسن من دار، أدنى أهلها يسير في ملكه ونعيمه وقصوره وبساتينه ألقي سنة، ولا يرى فوق ما هو فيه من النعيم، قد أعطي جميع أمانيه ومطالبه، وزيد من المطالب، ما قصرت عنه الأماني، ومع ذلك، فعنيمهم على الدوام متزايد في أوصافه وحسنه، فنسأل الله الكريم، أن لا يحرمننا خير ما عنده من الإحسان، بشرُّ ما عندنا من التقصير والعصيان.

﴿فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر﴾ أي: لم يبق إلا سلوك أحد الطرفين، بحسب توفيق العبد، وعدم توفيقه، وقد أعطاه الله مشيئة بها يقدر على الإيمان والكفر، والخير والشر، فمن آمن فقد وفق للصواب، ومن كفر فقد قامت عليه الحجة، وليس بمكره على الإيمان، كما قال تعالى ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾ وليس في قوله: ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ الإذن في كلا الأمرين، وإنما ذلك تهديد ووعيد لمن اختار الكفر بعد البيان التام، كما ليس فيها ترك قتال الكافرين. ثم ذكر تعالى مآل الفريقين فقال: ﴿إنا أعدنا للظالمين﴾ بالكفر والفسوق والعصيان ﴿ناراً أحاط بهم سرادقها﴾ أي: سورها المحيط بها، فليس لهم منفذ ولا طريق ولا مخلص منها، تصلاهم النار الحامية.

﴿وإن يستغيثوا﴾ أي: يطلبوا الشراب، ليطفئ ما نزل بهم من العطش الشديد. ﴿يغيثوا بماء كالمهل﴾ أي: كالرصاص المذاب، أو كعكر الزيت، من شدة حرارته.

﴿يشوي الوجوه﴾ أي: فكيف بالأعماء والبطون، كما قال تعالى ﴿يصهر به ما في بطونهم والجلود﴾ ولهم مقامع من حديد.

﴿بئس الشراب﴾ الذي يراد ليطفئ العطش، ويدفع بعض العذاب، فيكون زيادة في عذابهم، وشدة عقابهم.

﴿وساءت﴾ النار ﴿مرتفقاً﴾ وهذا ذم لخالة النار، أنها ساءت المحل، الذي يرتفق به، فإنها ليس فيها ارتفاق، وإنما فيها العذاب العظيم الشاق، الذي لا يُقْتَر عنهم ساعة، وهم فيه مبلسون، قد أيسوا من كل خير، ونسيهم الرحيم في العذاب كما نسوه ثم ذكر الفريق الثاني فقال: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي: جمعوا بين الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره

وإزجحت أشجارها، ولم تعرض لهما آفة أو نقص، فهذا غاية منتهى زينة الدنيا في الحرث، ولهذا اغتر هذا الرجل بهما، وتبجح وافتخر، ونسي آخرته.

﴿٣٤-٣٦﴾ **فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً** \* ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبعد هذه أبداً \* وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً \* أي : فقال صاحب الجنتين لصاحبه المؤمن، وهما يتحاوران، أي : يتراجعان بينهما في بعض الماكرات المعتادة، مفتخراً عليه :

**«أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً»** فخر بكثرة ماله، وعزة أنصاره من عبيد، وخدم، وأقارب، وهذا جهل منه، وإلا فأى : افتخار بأمر خارجي ليس فيه فضيلة نفسية، ولا صفة معنوية، وإنما هو بمنزلة فخر الصبي بالأماني، التي لا حقائق تحتها، ثم لم يكفه هذا الافتخار على صاحبه، حتى حكم بجهله وظلمه، وظن لما دخل جنته، ف **«قال ما أظن أن تبعد أبداً»** أي : تنقطع وتضمحل **«هذه أبداً»** فاطمأن إلى هذه الدنيا، ورضي بها، وأنكر البعث، فقال : **«وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي»** على ضرب المثل **«لأجدن خيراً منها منقلباً»** أي : ليعطيني خيراً من هاتين الجنتين، وهذا لا يخلو من أمرين : إما أن يكون عالماً بحقيقة الحال، فيكون كلامه هذا على وجه التهكم والاستهزاء فيكون زيادة كفر إلى كفره، وإما أن يكون هذا ظنه في الحقيقة، فيكون من أجهل الناس، وأبغضهم حظاً من العقل، فأى : تلازم بين عطاء الدنيا وعطاء الآخرة، حتى يظن بجهله أن من أعطى في الدنيا أعطى في الآخرة، بل الغالب أن الله تعالى يزوي السدينا عن أوليائه وأصفيائه، ويوسعها على أعدائه، الذين ليس لهم في الآخرة نصيب، والظاهر أنه يعلم حقيقة الحال، ولكنه

قال هذا الكلام على وجه التهكم والاستهزاء، بدليل قوله : **«ودخل جنته وهو ظالم لنفسه»** فإثبات أن وصفه الظلم، في حال دخوله، الذي جرى منه، من القول ما جرى، يدل على تمرده وعناده.

﴿٣٧-٣٩﴾ **قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً \* لكننا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحداً \* ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله** \* أي : قال له صاحبه المؤمن، ناصحاً له، ومذكراً له حاله الأولى، التي أوجده الله فيها في الدنيا **«من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً»** فهو الذي أنعم عليك بنعمة الإيجاد والإمداد، وأوصل عليك النعم، ونقلك من طور إلى طور، حتى سواك رجلاً، كامل الأعضاء والجوارح المحسوسة والمعقولة، وبذلك يشر لك الأسباب، وهياكل ما هيا من نعم الدنيا، فلم تحصل لك الدنيا بحولك وقوتك، بل بفضل الله تعالى عليك، فكيف يليق بك أن تكفر بالله الذي خلقك من تراب، ثم من نطفة ثم سواك رجلاً، وتجد<sup>(١)</sup> نعمته، وتزعم أنه لا يعثك، وإن بعثك أنه يعطيك خيراً من جنتك؟! هذا مما لا ينبغي ولا يليق. ولهذا لما رأى صاحبه المؤمن حاله واستمراره على كفره وطغيانه، قال مخبراً عن نفسه، على وجه الشكر لربه، والإعلان بدينه، عند ورود المجادلات والشبه : **«لكننا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحداً»** فأقر بربوبيته لربه، وانفراده فيها، والتزم<sup>(٢)</sup> طاعته وعبادته، وأنه لا يشرك به أحداً من المخلوقين، ثم أخبره أن نعمة الله عليه بالإيمان والإسلام، ولو مع قلة ماله وولده، أنها هي النعمة الحقيقية، وأن ما عداها معروض للزوال والعقوبة عليه والنكال، فقال :

﴿٣٩-٤٤﴾ **إن ترن أنا أقل منك مالاً وولداً \* فعمى ربي أن يؤتين خيراً**

من جنتك ويرسل عليها حساباً من السماء فتصبح صعيداً زلقاً \* أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً \* وأحيط بشمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً \* ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً \* هنالك الولاية لله الحق هو خير ثواباً وخير عقاباً .

أي : قال للكافر صاحبه المؤمن : أنت - وإن فخرت علي بكثرة مالك وولديك، ورأيتني أقل منك مالاً وولداً - فإن ما عند الله، خير وأبقى، وما يرحى من خيره وإحسانه، أفضل من جميع الدنيا، التي يتنافس فيها المتنافسون.

**«فعمى ربي أن يؤتين خيراً من جنتك ويرسل عليها»** أي : على جنتك التي طغيت بها وغرتك **«حساباً من السماء»** أي : عذاباً، بمطر عظيم أو غيره، **«فتصبح»** بسبب ذلك **«صعيداً زلقاً»** أي : قد اقتلعت أشجارها، وتلفت ثمارها، وغرق زرعها، وزال نفعها، **«أو يصبح ماؤها»** الذي مادتها منه **«غوراً»** أي : غائراً في الأرض **«فلن تستطيع له طلباً»** أي : غائراً لا يستطيع الوصول إليه بالعاول ولا بغيرها، وإنما دعا على جنته المؤمن غضباً لربه، لكونها غرته وأطغته، واطمأن إليها، لعله ينيب، ويراجع رشده، ويبصر في أمره.

فاستجاب الله دعاءه **«وأحيط بشمره»** أي : أصابه عذاب أحاط به، واستهلكه، فلم يبق منه شيء، والإحاطة بالشمر يستلزم تلف جميع أشجاره، وثمارها، وزرعه، فندم كل الندامة، واشتد لذلك أسفه، **«فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها»** أي : على كثرة نفقاته الدنيوية عليها، حيث اضمحلت وتلاشت، فلم يبق لها عوض، وندم أيضاً على شركه،

(١) في ب: وتجهل.

(٢) في ب: والتزام.



الكرام<sup>(١)</sup>، فتطير لها القلوب، وتعظم من وقعها الكروب، وتكاد لها الصم الصلاب تذوب، ويشفق منها المجرمون، فإذا رأوها مسطرة عليهم أعمالهم، محصى عليهم أقوالهم وأفعالهم، قالوا: ﴿يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها﴾ أي: لا يترك خطيئة صغيرة ولا كبيرة، إلا وهي مكتوبة فيه، محفوظة لم ينس منها عمل سر ولا علانية، ولا ليل ولا نهار، ﴿ووجدوا ما عملوا حاضراً﴾ لا يقدرون على إنكاره ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾ فحيثذا يجازون بها، ويقرون بها، ويخزون، ويحق عليهم العذاب، ذلك بما قدمت أيديهم وأن الله ليس بظلام للعبيد، بل هم غير خارجين عن عدله وفضله.

﴿٥٠﴾ ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً﴾ يخبر تعالى، عن عداوة إبليس لآدم وذريته، وأن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم، إكراماً وتعظيماً، وامثالاً لأمر الله، فامتثلوا ذلك ﴿إلا إبليس كان من الجن، ففسق عن أمر ربه﴾ وقال: ﴿أأسجد لمن خلقت طيناً﴾ وقال: ﴿أنا خير منه﴾ فتبين بهذا عداوته لله ولأبيكم ولكم، فكيف تتخذونه وذريته، أي: الشياطين ﴿أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً﴾ أي: بئس ما اختاروا لأنفسهم من ولاية الشيطان، الذي لا يأمرهم إلا بالفحشاء والمنكر عن ولاية الرحمن، الذي كل السعادة والفلاح والسرور في ولايته. وفي هذه الآية، الحث على اتخاذ الشيطان عدواً، والإغراء بذلك، وذكر السبب الموجب لذلك، وأنه لا يفعل ذلك إلا ظالم، وأي: ظلم أعظم من ظلم من اتخذ عدوه الحقيقي ولياً، وترك الولي الحميد؟!!

المال والبنون ونوع يبقى وينفع صاحبه على الدوام، وهي الباقيات الصالحات. ﴿٤٩ - ٤٧﴾ ﴿ويوم نستير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً﴾ وعرضوا على ربك صفاً لقد جثتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً \* ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً﴾ يخبر تعالى عن حال يوم القيامة، وما فيه من الأحوال المقلقة، والشدائد المزعجة فقال:

﴿ويوم نستير الجبال﴾ أي: يزيلها عن أماكنها، يجعلها كشيء، ثم يجعلها كالعهن المنفوش، ثم تضمحل وتتلأشى، وتكون هباء منبثاً، وتبرز الأرض فتصير قاعاً صافصفاً، لا عوج فيه ولا أمثاً، ويحشر الله جميع الخلق على تلك الأرض، فلا يغادر منهم أحداً، بل يجمع الأولين والآخرين من بطون الفلوات، وقصور البحار، ويجمعهم بعدما تفرقوا، ويعيدهم بعدما تمزقوا، خلقاً جديداً، فيعرضون عليه صنفاً ليستعرضهم وينظر في أعمالهم، ويحكم فيهم بحكمه العدل، الذي لا جور فيه ولا ظلم، ويقول لهم: ﴿لقد جثتمونا كما خلقناكم أول مرة﴾ أي: بلا مال، ولا أهل، ولا عشيرة، ما معهم إلا الأعمال، التي عملوها، والمكاسب في الخير والشر، التي كسبوها كما قال تعالى: ﴿ولقد جثتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء﴾ وقال هنا، مخاطباً للمنكرين للبعث، وقد شاهدوه عياناً: ﴿بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً﴾ أي: أنكرتم الجزء على الأعمال، ووعد الله ووعدته، فما قد رأيتموه وذقتموه، فحيثذا تحضر كُتِبَ الأعمال التي كتبتها الملائكة



تشتبهه الأنفس وتلذ الأعين؟ فهذا يعرف توفيق العبد من خذلانه، وربحه من خسراته، ولهذا أخبر تعالى أن المال والبنين، زينة الحياة الدنيا، أي: ليس وراء ذلك شيء، وأن الذي يبقى للإنسان وينفعه ويسره، الباقيات الصالحات، وهذا يشمل جميع الطاعات الواجبة، والمستحبة من حقوق الله، وحقوق عباده، من صلاة، وزكاة، وصدقة، وحج، وعمرة، وتسيب، وتحميد، وتكبير، وقراءة، وطلب علم نافع، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وصلة رحم، وبر والدين، وقيام بحق الزوجات، والماليك، والبهاائم، وجميع وجوه الإحسان إلى الخلق، كل هذا من الباقيات الصالحات، فهذه خير عند الله ثواباً وخيراً أملاً، فشواها يبقى، ويتضاعف على الآباد، ويؤمل أجراها وبرها ونفعها عند الحاجة، فهذه التي ينبغي أن يتنافس بها المتنافسون، ويستبق إليها العاملون، ويجد في تحصيلها المجتهدون، وتأمل كيف لما ضرب الله مثل الدنيا وحالها واضمحلالها، ذكر أن الذي فيها نوعان: نوع من زينتها، يتمتع به قليلاً، ثم يزول بلا فائدة تعود لصاحبه، بل ربما لحقته مضرت، وهو

قال تعالى: ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾.

وقال تعالى: ﴿إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله﴾.

﴿٥١ - ٥٢﴾ ﴿ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضداً﴾ \* ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقاً﴾ يقول تعالى: ما أشهدت الشياطين [وهؤلاء المضلين]، ﴿خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم﴾ أي: ما أحضرتهم ذلك، ولا شاورتهم عليه، فكيف يكونون خالقين لشيء من ذلك؟! بل المنفرد بالخلق والتدبير، والحكمة والتقدير، هو الله، خالق الأشياء كلها، المتصرف فيها بحكمته، فكيف يجعل له شركاء من الشياطين، يوالون ويطاعون، كما يطاع الله، وهم لم يخلقوا ولم يشهدوا خلقاً، ولم يعاونوا الله تعالى؟! ولهذا قال: ﴿وما كنت متخذ المضلين عضداً﴾ أي: معاونين، مظاهرين لله على شأن من الشؤون، أي: ما ينبغي ولا يليق بالله، أن يجعل لهم قسطاً من التدبير، لأنهم ساعون في إضلال الخلق والعداوة لربهم، فاللائق أن يقصيههم ولا يدينهم.

ولما ذكر حال من أشرك به في الدنيا، وأبطل هذا الشرك غاية الإبطال، وحكم بجهل صاحبه وسفه، أخبر عن حالهم مع شركائهم يوم القيامة، وأن الله يقول لهم: ﴿نادوا شركائي﴾ بزعمكم أي: على موجب زعمكم الفاسد، وإلا بالحققة ليس لله شريك في الأرض، ولا في السماء، أي: نادوهم، لينفعوكم، ويخلصوكم من الشدائد، ﴿فدعوهم﴾ فلم يستجيبوا لهم لأن الحكم والملك يومئذ لله، لا أحد يملك مقال ذرة من النفع لنفسه ولا لغيره.

﴿وجعلنا بينهم﴾ أي: بين المشركين وشركائهم ﴿موبقاً﴾ أي: مهلكاً،

يفرق بينهم وبينهم، ويبعد بعضهم من بعض، ويتبين حيثئذ عداوة الشركاء لشركائهم، وكفرهم بهم، وتبريم منهم، كما قال تعالى: ﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾.

﴿٥٣﴾ ﴿ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً﴾ أي: لما كان يوم القيامة وحصل من الحساب ما حصل، وتميز كل فريق من الخلق بأعمالهم، وحقت كلمة العذاب على المجرمين، فرأوا جهنم قبل دخولها، فانزعجوا واشتد قلقهم لظنهم أنهم مواقعوها، وهذا الظن قال المفسرون: إنه بمعنى اليقين، فأيقنوا أنهم داخلوها ﴿ولم يجدوا عنها مصرفاً﴾ أي: معدلاً يعدلون إليه، ولا شافع لهم من دون إذنه، وفي هذا من التخويف والترهيب، ما ترعد له الأئدة والقلوب.

﴿٥٤﴾ ﴿ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شياً جدلاً﴾ يخبر الله تعالى عن عظمة القرآن، وجلالته، وعمومه، وأنه صرّف فيه من كل مثل، أي: من كل طريق موصل إلى العلوم النافعة، والسعادة الأبدية، وكل طريق يعصم من الشر والهلاك، ففيه أمثال الحلال والحرام، وجزاء الأعمال، والترغيب والترهيب، والأخبار الصادقة النافعة للقلوب، اعتقاداً، وطمأنينة، ونوراً، وهذا مما يوجب التسليم لهذا القرآن وتلقيه بالانقياد والطاعة، وعدم المنازعة له في أمر من الأمور، ومع ذلك، كان كثير من الناس يجادلون في الحق بعد ما تبين، ويجادلون بالباطل ﴿ليدحضوا به الحق﴾ ولهذا قال: ﴿وكان الإنسان أكثر شياً جدلاً﴾ أي: مجادلة ومنازعة فيه، مع أن ذلك غير لائق بهم، ولا عدل منهم، والذي أوجب له ذلك وعدم الإيمان بالله، إنما هو الظلم والعناد، لا لقصور في بيانه وحجته وبرهانه، وإلا فلر جاءهم العذاب، وجاءهم ما جاء قبلهم، لم تكن هذه حالهم، ولهذا

قال:

﴿٥٥﴾ ﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلاً﴾ أي: ما منع الناس من الإيمان، والحال أن الهدى الذي يحصل به الفرق، بين الهدى والضلال، والحق والباطل، قد وصل إليهم، وقامت عليهم حجة الله، فلم يمنعه عدم البيان، بل منعهم الظلم والعدوان عن الإيمان، فلم يبق إلا أن تأتيهم سنة الله، وعادته في الأولين من أنهم إذا لم يؤمنوا عوجلوا بالعذاب، أو يرون العذاب قد أقبل عليهم، ورأوه مقابلة ومعاناة، أي: فليخافوا من ذلك، وليتوبوا من كفرهم، قبل أن يكون العذاب الذي لا مرد له.

﴿٥٦﴾ ﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنذروا هزواً﴾ أي: لم نرسل الرسل عبثاً، ولا ليتخذهم الناس أرباباً، ولا ليدعوا إلى أنفسهم، بل أرسلناهم يدعون الناس إلى كل خير، وينهون عن كل شر، ويبشرونهم على امتثال ذلك بالثواب العاجل والأجل، وينذرونهم على معصية ذلك بالعقاب العاجل والأجل، فقامت بذلك حجة الله على العباد، ومع ذلك يأبى الظالمون الكافرون، إلا المجادلة بالباطل، ليدحضوا به الحق، فسعوا في نصر الباطل مهما أمكنهم، وفي دحض الحق وإبطاله، واستهزؤوا برسول الله وآياته، وفرحوا بما عندهم من العلم، وبأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون، ويظهر الحق على الباطل ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾ ومن حكمة الله ورحمته، أن تقيضه المبطلين المجادلين الحق بالباطل، من أعظم الأسباب إلى وضوح الحق وتبين شواهد وأدلته، وتبين الباطل وفساده، فيضدها تبيين الأشياء.

﴿٥٧ - ٥٩﴾ ﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما

ذلك .

ثم أخبر تعالى عن سعة مغفرته ورحمته، وأنه يغفر الذنوب، ويتوب الله على من يتوب، فيتغمده برحمته، ويشمله بإحسانه، وأنه لو أخذ<sup>(٢)</sup> العباد على ما قدمت أيديهم من الذنوب، لعجل لهم العذاب، ولكنه تعالى حلیم لا يعجل بالعقوبة، بل يمهل ولا يهمل، والذنوب لا بد من وقوع آثارها، وإن تأخر عنها مدة طويلة، ولهذا قال:

﴿بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موثلاً﴾ أي: لهم موعد، يجازون فيه بأعمالهم، لا بدل لهم منه، ولا مندوحة لهم عنه، ولا ملجأ، ولا محيد عنه، وهذه سنته في الأولين والآخرين، أن لا يعاجلهم بالعقاب، بل يستدعيهم إلى التوبة والإنابة، فإن تابوا وأنبأوا، غفر لهم ورحمهم، وأزال عنهم العقاب، وإلا، فإن استمروا على ظلمهم وعنادهم، وجاء الوقت الذي جعله موعداً لهم، أنزل بهم بأسه، ولهذا قال: ﴿وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا﴾ أي: بظلمهم، لا بظلم منا ﴿وجعلنا لهملكهم موعداً﴾ أي: وقتاً مقدراً، لا يتقدمون عنه ولا يتأخرون.

﴿٦٠ - ٨٢﴾ ﴿وإذ قال موسى

لفتهاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقياً﴾ فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سرباً ﴿فلما جاوزا قال لفتهاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصيباً﴾ قال أرأيت إذ أوتينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجياً ﴿قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً﴾ فوجدنا عبداً من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً ﴿قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً﴾ قال إنك لن تستطيع معي صبراً ﴿وكيف تصبر على ما لم

تخط به خبيراً﴾ قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً ﴿قال فإن اتبعنتي فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً﴾ فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها ﴿إلى قوله: ﴿ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً﴾ يخبر تعالى عن نبية موسى عليه السلام، وشدة رغبته في الخير وطلب العلم، أنه قال لفتهاه - أي: خادمه الذي يلازمه في حضره وسفره، وهو «يوشع بن نون» الذي نبأه الله بعد ذلك: - ﴿لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين﴾ أي: لا أزال مسافراً وإن طالت علي الشقة، ولحقتني المشقة، حتى أصل إلى مجمع البحرين، وهو المكان الذي أوحى إليه أنك ستجد فيه عبداً من عباد الله العالمين، عنده من العلم ما ليس عندك، ﴿أو أمضي حقياً﴾ أي: مسافة طويلة، المعنى: أن الشوق والرغبة، حمل موسى أن قال لفتهاه هذه المقالة، وهذا عزم منه جازم، فلذلك أمضاه.

﴿فلما بلغا﴾ أي: هو وفتهاه ﴿مجمع بينهما نسيا حوتهما﴾ وكان معهما حوت يتزودان منه ويأكلان، وقد وعد أنه متى فقد الحوت فتم ذلك العبد الذي قصدته، فاتخذ ذلك الحوت سبيله، أي: طريقه في البحر سرباً وهذا من الآيات.

قال المفسرون: إن ذلك الحوت الذي كانا يتزودان منه، لما وصلا إلى ذلك المكان، أصابه بلل البحر، فانسرب بإذن الله في البحر، وصار مع حيواناته حياً.

فلما جاوز موسى وفتهاه مجمع البحرين، قال موسى لفتهاه: ﴿آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصيباً﴾ أي: لقد تعبنا من هذا السفر المجاوز فقط، وإلا فالسفر الطويل الذي وصلا به إلى مجمع البحرين لم يجدا مس التعب فيه، وهذا من الآيات والعلامات الدالة لموسى على وجود مطلبه، وأيضاً فإن

قدمت يدها إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبداً ﴿وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موثلاً﴾ وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً ﴿يخبر تعالى أنه لا أعظم ظلماً، ولا أكبر جرماً، من عبد ذكّر بآيات الله وبُين له الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وخوف ورهب ورغب ورعب، فأعرض عنها، فلم يتذكر بما ذكّر به، ولم يرجع عما كان عليه، ونسي ما قدمت يدها من الذنوب، ولم يراقب علام الغيوب، فهذا أعظم ظلماً من المعرض الذي لم تأت آيات الله ولم يذكر بها، وإن كان ظالماً، فإنه أخف<sup>(١)</sup> ظلماً من هذا، لكون العاصي على بصيرة وعلم، أعظم ممن ليس كذلك، ولكن الله تعالى عاقبه بسبب إعراضه عن آياته، ونسيانه لذنوبه، ورضاه لنفسه، حالة الشرع علمه بها، أن سد عليه أبواب الهداية بأن جعل على قلبه أكنة، أي: أغطية محكمة تمنعه أن يفقه الآيات وإن سمعتها، فليس في إمكانها الفقه الذي يصل إلى القلب، ﴿وفي آذانهم وقراً﴾ أي: صمماً يمنعهم من وصول الآيات، ومن سماعها على وجه الانتفاع وإذا كانوا بهذه الحالة، فليس لهديتهم سبيل، ﴿وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبداً﴾ لأن الذي يرجى أن يجيب الداعي للهدى من ليس عالماً، وأما هؤلاء الذين أبصروا ثم عموا، ورأوا طريق الحق حقاً فتركوه، وطريق الضلال ضلالاً فسلكوه، وعاقبهم الله بإفقال القلوب والطبع عليها، فليس في هدايتهم حيلة ولا طريق. وفي هذه الآية من التخويف لمن ترك الحق بعد علمه، أن يحال بينهم وبينه، ولا يتمكن منه بعد ذلك، ما هو أعظم مرهب وزاجر عن

(١) في ب: فإنه أشد، والسياق يدل على ما أثبت.

(٢) في الأصل واخذ.

فَلَمَّا جَاؤَا قَالَ لِقَتْنَهُ إِيسَى عَدَاةً أَلَعَدَّ لِقَيْتَانِ مِنْ سَفَرِكَ هَذَا  
 نَسِيًا ﴿٢٠١﴾ قَالَ أَرَبَيْتَ إِذْ أَوْسَيْتَ إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسَيْتُ الْخَضْرَى  
 وَمَا أُنْسَيْتُهُ إِلَّا الْقَيْطِينَ أَن أُنْكَرُكَ وَأُنْكَرُكَ سَبِيلَ رُفِ  
 الْخَضْرَى ﴿٢٠٢﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنْتُ أَتَيْتُ وَأَنْتَ عَلَى رَأْسِهَا إِيسَى  
 قَصَصًا ﴿٢٠٣﴾ وَحِكْمًا عِيدًا مِنْ عِبَادَتِكَ إِنَّتُمْ رَجَعْتُمْ مِنْ عِينِنَا  
 وَعَنْتُمْ مِنْ أَدْبَاعِكُمْ ﴿٢٠٤﴾ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْتُمْ عَلَى  
 أَنْ تَمْسُكِينَ بِمَا كُنْتُمْ تُرْفَعُونَ ﴿٢٠٥﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي  
 صَبْرًا ﴿٢٠٦﴾ وَكُنْتُ تَضِيرُ عَلَيَّ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا ﴿٢٠٧﴾  
 قَالَ سَمِعْتُ لِي أَنْ سَاءَ اللَّهُ صَبْرًا وَلَا أَقْصَى لَكَ أَمْرًا ﴿٢٠٨﴾  
 قَالَ إِنِّي أَتَيْتُنِي فَلَا تَسْتَلِي عَنِّي وَتَحْتِ الْأَخْدِثُ لَكَ مَنَةً وَكِرًا  
 ﴿٢٠٩﴾ فَأَطْلُقْ حَتَّى إِذَا رَكِبْتَ فِي السَّفِينَةِ حَرِّقْهَا قَالَ أَعْرِفُهَا  
 لِخَيْرٍ أَهْمَهَا لَقَدْ جِئْتُ سَيِّئًا إِسْرًا ﴿٢١٠﴾ قَالَ الرَّاقِلُ إِنَّكَ لَنْ  
 تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا ﴿٢١١﴾ قَالَ لَا لَوْ كُنْتُ بِذِي بَابِئِثٍ وَلَا أُهْبِئِي  
 مِنْ أَمْرِي عَسْرًا ﴿٢١٢﴾ فَأَطْلُقْ حَتَّى إِذَا رَكِبْتَ أَعْلَمْتُ أَنَّكَ قَاتِلٌ  
 أَقْلَتُ نَسِيًا رَكِبْتُ بِعَمْرِ قَيْسٍ لَقَدْ جِئْتُ سَيِّئًا لِكْرًا ﴿٢١٣﴾

﴿فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً﴾ أي :  
 صغيراً ﴿فقتله﴾ الخضر، فاشتد  
 بموسى الغضب، وأخذته الحمية  
 الدينية، حين قتل غلاماً صغيراً لم  
 يذنب، ﴿قال أقلت نفساً زكية بغير  
 نفس لقد جئت شيئاً نكراً﴾ أي : نكر  
 مثل قتل الصغير، الذي ليس عليه  
 ذنب، ولم يقتل أحداً؟! وكانت الأولى  
 من موسى نسياناً، وهذه غير نسيان،  
 ولكن عدم صبر، فقال له الخضر معاتباً  
 ومذكراً: ﴿ألم أقل لك إنك لن تستطيع  
 معي صبراً﴾

فقال [له] موسى: ﴿إن سألتك عن  
 شيء﴾ بعد هذه المرة ﴿فلا تصاحبني﴾  
 أي : فأنت معذور بذلك، وبتترك  
 صحبتي ﴿قد بلغت من لدني عذراً﴾  
 أي : أعذرت مني، ولم تقصر .  
 ﴿فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية  
 استطعما أهلها﴾ أي : استضافاهم،  
 فلم يضيفوهما ﴿فوجدوا فيها جداراً يريد  
 أن ينقض﴾ أي : قد عاب واستهدم  
 ﴿فأقامه﴾ الخضر أي : بناه وأعاد  
 جديداً . فقال له موسى : ﴿لو شئت  
 لأخذت عليه أجراً﴾ أي : أهل هذه  
 القرية، لم يضيفونا مع وجوب ذلك  
 عليهم، وأنت تبنيه من دون أجره،  
 وأنت تقدر عليها؟ . فحينئذ لم يف  
 موسى عليه السلام بما قال، واستعذر

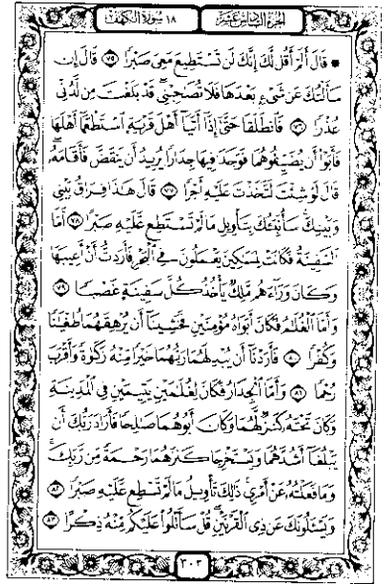
من الأشياء التي خفيت، حتى على  
 موسى عليه السلام، فقال الخضر  
 لموسى : لا أمتنع من ذلك، ولكنك  
 ﴿لن تستطيع معي صبراً﴾ أي :  
 لا تقدر على اتباعي وملازمتي، لأنك  
 ترى ما لا تقدر على الصبر عليه من  
 الأمور التي ظاهرها المنكر، وباطنها  
 غير ذلك، ولهذا قال : ﴿وكيف تصبر  
 على ما لم نحط به خبيراً﴾ أي : كيف  
 تصبر على أمر، ما أحطت بباطنه  
 وظاهره، وعلمت المقصود منه ومآله؟  
 فقال موسى : ﴿ستجدني إن  
 شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً﴾  
 وهذا عزم منه، قبل أن يوجد الشيء  
 المتحزن به، والعزم شيء، ووجود  
 الصبر شيء آخر، فلذلك ما صبر  
 موسى عليه السلام حين وقع الأمر،  
 فحينئذ قال له الخضر : ﴿فإن اتبعني  
 فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك  
 منه ذكراً﴾ أي : لا تبدتني بسؤال منك  
 وإنكار، حتى أكون أنا الذي أخبرك  
 بحاله، في الوقت الذي ينبغي إخبارك  
 به، فنهاه عن سؤاله، ووعده أن يوقفه  
 على حقيقة الأمر .

﴿فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة  
 خرقتها﴾ أي : اقتلع الخضر منها لوحاً،  
 وكان له مقصود في ذلك سببته، فلم  
 يصبر موسى عليه السلام، لأن ظاهره  
 أنه منكر، لأنه عيب للسفينة، وسبب  
 لغرق أهلها، ولهذا قال موسى :  
 ﴿أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً  
 إمرأ﴾ أي : عظيماً شنيعاً، وهذا من  
 عدم صبره عليه السلام، فقال له  
 الخضر : ﴿ألم أقل إنك لن تستطيع معي  
 صبراً﴾ أي : فوقع كما أخبرتك، وكان  
 هذا من موسى نسياناً فقال :  
 ﴿لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني  
 من أمري عسراً﴾ أي : لا تعسر علي  
 الأمر واسمح لي، فإن ذلك وقع على  
 وجه النسيان، فلا تؤاخذني في أول  
 مرة . فجمع بين الإقرار به والعذر منه،  
 وأنه ما ينبغي لك أيها الخضر الشدة على  
 صاحبك، فسمح عنه الخضر .

الشوق المتعلق بالوصول إلى ذلك  
 المكان، سهل لهما الطريق، فلما تجاوزا  
 غابتهما وجدا مس التعب، فلما قال  
 موسى لفتاه هذه المقالة، قال له فتاه :  
 ﴿أرأيت إذ أوسنا إلى الصخرة فلإني  
 نسيت الخوت﴾ أي : ألم تعلم حين أوانا  
 الليل إلى تلك الصخرة المعروفة بينهما  
 ﴿فلإني نسيت الخوت وما أنسانيه إلا  
 الشيطان﴾ لأنه السبب في ذلك ﴿واخذ  
 سبيله في البحر عجباً﴾ أي : لما انسرب  
 في البحر ودخل فيه، كان ذلك من  
 العجائب .

قال المفكرون : كان ذلك المسلك  
 للحوت سرياً، ولموسى وفتاه عجباً،  
 فلما قال له الفتى هذا القول، وكان  
 عند موسى وعد من الله أنه إذا فقد  
 الحوت، وجد الخضر، فقال موسى :  
 ﴿ذلك ما كنا نبغ﴾ أي : نطلب  
 ﴿فارتدا﴾ أي : رجعا ﴿على آثارهما  
 قصصاً﴾ أي : رجعا يقصان أثرهما، إلى  
 المكان الذي نسيان فيه الحوت فلما وصلا  
 إليه، وجدا عبداً من عبادنا، وهو  
 الخضر، وكان عبداً صالحاً، لا نبياً على  
 الصحيح .

آتيناه [رحمة من عندنا] أي :  
 أعطاه الله رحمة خاصة بها زاد علمه  
 وحسن عمله ﴿وعلمناه﴾ [١١] ﴿من  
 لدنا﴾ [أي : من عندنا] علماً، وكان قد  
 أعطي من العلم ما لم يعط موسى، وإن  
 كان موسى عليه السلام أعلم منه بأكثر  
 الأشياء، وخصوصاً في العلوم  
 الإيمانية والأصولية، لأنه من أولي  
 العزم من المرسلين، الذين فضلهم الله  
 على سائر الخلق، بالعلم والعمل،  
 وغير ذلك، فلما اجتمع به موسى قال  
 له على وجه الأدب والمشاورة،  
 والإخبار عن مطلبه : ﴿هل أتبعك على  
 أن تعلمن مما علمت رشداً﴾ أي : هل  
 أتبعك على أن تعلمني مما علمك الله،  
 ما به أسترشد وأهتدي، وأعرف به  
 الحق في تلك القضايا؟ وكان الخضر،  
 قد أعطاه الله من الإلهام والكرامة، ما  
 يحصل له الاطلاع على بواطن كثير



ومنها: أن المسافر لطلب علم أو جهاد أو نحوه، إذا اقتضت المصلحة الإخبار بمطلبه، وأين يريد، فإنه أكمل من كتمه، فإن في إظهاره فوائد من الاستعداد له عدته، وإتيان الأمر على بصيرة، وإظهاراً لشرف هذه العبادة الجليلية، كما قال موسى: ﴿لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقياً﴾

وكما أخبر النبي ﷺ أصحابه حين غزا تبوك بوجهه، مع أن عادته التورية، وذلك تبع للمصلحة.

ومنها: إضافة الشر وأسبابه إلى الشيطان، على وجه التسويل والترزين، وإن كان الكل بقضاء الله وقدره، لقول فتى موسى: ﴿وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره﴾.

ومنها: جواز إخبار الإنسان عما هو من مقتضى طبيعة النفس، من نصب أو جوع أو عطش، إذا لم يكن على وجه التسخط وكان صدقاً، لقول موسى: ﴿لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً﴾

ومنها: استحباب كون خادم الإنسان، ذكياً فظناً كيساً، ليم له أمره الذي يريده.

ومنها: استحباب إطعام الإنسان خادمه من مأكله، وأكلهما جميعاً، لأن ظاهر قوله: ﴿أتنا غداءنا﴾ إضافة إلى الجميع، أنه أكل هو وهو جميعاً.

ومنها: أن المعونة تنزل على العبد على حسب قيامه بالمأمور به، وأن الموافق لأمر الله، يعان ما لا يعان غيره لقوله: ﴿لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً﴾ والإشارة إلى السفر المجاوز،

لمجمع البحرين، وأما الأول، فلم يشتك منه التعب مع طوله، لأنه هو السفر على الحقيقة. وأما الأخير، فالظاهر أنه بعض يوم، لأنهم فقدوا الخوت حين أووا إلى الصخرة، فالظاهر أنهم باتوا عندها، ثم ساروا من الغد، حتى إذا جاء وقت الغداء قال موسى لفتاه: ﴿أتنا غداءنا﴾ فحينئذ تذكر أنه

إساءة إليهما، وقطع لذريتهما، فإن الله تعالى سيعطيها من الذرية ما هو خير منه، ولهذا قال: ﴿فأردنا أن يبدلناهما بهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً﴾ أي: ولدأ صالحاً، زكياً، واصلأ لرحمه، فإن الغلام الذي قتل لو بلغ لعقهما أشد العقوق بحملهما على الكفر والطغيان.

﴿وأما الجدار﴾ الذي أقمته ﴿فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً﴾ أي: حالهما تقتضي الرأفة بهما ورحتهما، لكونهما صغيرين عدما أباهما، وحفظهما الله أيضاً بصلاح والدهما.

﴿فأراد ربك أن يبلغنا أشدهما ويستخرجا كنزهما﴾ أي: فلهذا هدمت الجدار، واستخرجت ما تحته من كنزهما، وأعدته مجاناً.

﴿رحمة من ربك﴾ أي: هذا الذي فعلته رحمة من الله، آتاه الله عبده الخضر ﴿وما فعلته عن أمري﴾ أي: أتيت شيئاً<sup>(١)</sup> من قبل نفسي، ومجرد إرادتي، وإنما ذلك من رحمة الله وأمره.

﴿ذلك﴾ الذي فسرت لك ﴿تأويل ما لم تسطع عليه صبراً﴾

وفي هذه القصة العجيبة الجليلية، من الفوائد والأحكام والقواعد شيء كثير، نبه على بعضه بعون الله. فمنها فضيلة العلم، والرحلة في طلبه، وأنه أهم الأمور، فإن موسى عليه السلام رحل مسافة طويلة، ولقي النصب في طلبه، وترك القعود عند بني إسرائيل، لتعليمهم وإرشادهم، واختار السفر لزيادة العلم على ذلك.

ومنها: البداية بالأهم فالأهم، فإن زيادة العلم وعلم الإنسان أهم من ترك ذلك، والاشتغال بالتعليم من دون تزود من العلم، والجمع بين الأمرين أكمل.

ومنها: جواز أخذ الخادم في الخضر والسفر لكفاية المؤنة وطلب الراحة، كما فعل موسى.

الخضر منه، فقال له:

﴿هذا فراق بيني وبينك﴾ فإنك شرطت ذلك على نفسك، فلم يبق الآن عذر، ولا موضع للصحة، ﴿سأبنيك بتأويل ما لم تسطع عليه صبراً﴾ أي: سأخبرك بما أنكرت علي، وأبنيك بما لي في ذلك من المأرب، وما يؤول إليه الأمر.

﴿أما السفينة﴾ التي خرقتها ﴿فكانت لمساكين يعملون في البحر﴾ يقتضي ذلك الرقة عليهم، والرأفة بهم. ﴿فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا﴾ أي: كان مرورهم على ذلك الملك الظالم، فكل سفينة صاخة تمر عليه ما فيها عيب غضبها وأخذها ظلماً، فأردت أن أخرقها ليكون فيها عيب، فتسلم من ذلك الظالم.

﴿وأما الغلام﴾ الذي قتلته ﴿فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانياً وكفراً﴾ وكان ذلك الغلام قد قدر عليه أنه لو بلغ لأرهق أبويه طغياناً وكفراً، أي: لحملهما على الطغيان والكفر، إما لأجل محبتهم إياه، أو للحاجة إليه أو يحدما على ذلك، أي: فقتلته، لاطلاعي على ذلك، سلامة لدين أبويه المؤمنين، وأي: فائدة أعظم من هذه الفائدة الجليلية!! وهو وإن كان فيه

(١) كذا في النسخين، ومراد المؤلف - رحمه الله - النبي أي: ما أتيت.

ومنها: الأمر بالتأني والتثبت، وعدم المبادرة إلى الحكم على الشيء، حتى يعرف ما يراد منه، وما هو المقصود.

ومنها: تعليق الأمور المستقبلية التي من أفعال العباد بالشيئة، وأن لا يقول الإنسان للشيء: إني فاعل ذلك في المستقبل، إلا أن يقول: «إن شاء الله».

ومنها: أن العزم على فعل الشيء، ليس بمنزلة فعله، فإن موسى قال: ﴿ستجدني إن شاء الله صابراً﴾ فوطن نفسه على الصبر ولم يفعل.

ومنها: أن المعلم إذا رأى المصلحة في إيزاعه للمتعلم أن يترك الابتدء في السؤال عن بعض الأشياء، حتى يكون المعلم هو الذي يوقفه عليها، فإن المصلحة تتبع، كما إذا كان فهمه قاصراً، أو نهاء عن الدقيق في سؤال الأشياء التي غيرها أهم منها، أو لا يدرکہا ذهنه، أو يسأل سؤالاً، لا يتعلق في موضوع البحث.

ومنها: جواز ركوب البحر، في غير الحالة التي يخاف منها.

ومنها: أن الناسي غير مؤاخذ بنسيانته، لا في حق الله، ولا في حقوق العباد، لقوله: ﴿لا تؤاخذني بما نسيت﴾

ومنها: أنه ينبغي للإنسان أن يأخذ من أخلاق الناس ومعاملاتهم، العفو منها، وما سمحت به أنفسهم، ولا ينبغي له أن يكلفهم ما لا يطيقون، أو يشق عليهم ويرهقهم، فإن هذا مدعاة إلى النفور منه والسامة، بل يأخذ المتيسر ليتيسر له الأمر.

ومنها: أن الأمور تجري أحكامها على ظاهرها، وتعلق بها الأحكام الدنيوية في الأموال والدماء وغيرها، فإن موسى عليه السلام أنكز على الخضر خرقه السفينة، وقتل الغلام، وأن هذه الأمور ظاهرها أنها من المنكر، وموسى عليه السلام لا يسعه

فإن موسى عليه السلام من أولي العزم من المرسلين، الذين منحههم الله وأعطاهم من العلم ما لم يعط سواهم، ولكن في هذا العلم الخاص كان عند الخضر ما ليس عنده، فلهذا حرص على التعلم منه.

فعلی هذا، لا ينبغي للفقير المحدث، إذا كان قاصراً في علم النحو، أو الصرف، أو نحوه من العلوم، أن لا يتعلمه ممن مهر فيه، وإن لم يكن محدثاً ولا فقيهاً.

ومنها: إضافة العلم وغيره من الفضائل لله تعالى، والإقرار بذلك، وشكر الله عليها لقوله:

﴿تعلمن مما علمت﴾ أي: عما علمك الله تعالى.

ومنها: أن العلم النافع، هو العلم المرشد إلى الخير، فكل علم يكون فيه رشد وهداية لطرق<sup>(٢)</sup> الخير، وتحذير عن طريق الشر، أو وسيلة لذلك، فإنه من العلم النافع، وما سوى ذلك، فإما أن يكون ضاراً، أو ليس فيه فائدة لقوله: ﴿أن تعلمن مما علمت رشداً﴾

ومنها: أن من ليس له قوة الصبر على صحبة العالم والعلم، وحسن الثبات على ذلك، أنه يفوته بحسب عدم صبره كثير من العلم<sup>(٣)</sup>، فمن لا صبر له لا يدرك العلم، ومن استعمل الصبر ولازمه، أدرك به كل أمر سعى فيه، لقول الخضر - يعتذر من موسى بذكر المانع لموسى من الأخذ عنه - إنه لا يصبر معه.

ومنها: أن السبب الكبير لحصول الصبر، إحاطة الإنسان علماً وخبرة بذلك الأمر الذي أمر بالصبر عليه، وإلا فالذي لا يدريه، أو لا يدري غايته ولا نتيجته، ولا فائدته وثمرته ليس عنده سبب الصبر لقوله: ﴿وكيف تصبر على ما لم تحط به خيراً﴾. فجعل الموجب لعدم صبره، عدم إحاطته خبراً بالأمر.

نسيه في الموضع الذي إليه منتهى قصده.

ومنها: أن ذلك العبد الذي لقيه، ليس نبياً، بل عبداً صالحاً، لأنه وصفه بالعبودية، وذكر مئة الله عليه بالرحمة والعلم، ولم يذكر رسالته ولا نبوته، ولو كان نبياً، لذكر ذلك كما ذكر غيره.

وأما قوله في آخر القصة: ﴿وما فعلته عن أمري﴾ فإنه لا يدل على أنه نبي، وإنما يدل على الإلهام والتحديث، كما يكون لغير الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه﴾ ﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً﴾.

ومنها: أن العلم الذي يُعَلِّمُه الله [العبادة]<sup>(١)</sup> نوعان:

علم مكتسب يدركه العبد بجده واجتهاده. ونوع علم لدني، يهبه الله لمن يمس عليه من عباده لقوله: ﴿وعلمناه من لدنا علماً﴾

ومنها: التأدب مع المعلم، وخطاب المتعلم إياه ألطف خطاب، لقول موسى عليه السلام:

﴿هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً﴾ فأخرج الكلام بصورة الملاحظة والمشاورة، وأنتك هل تأذن لي في ذلك أم لا، وإقراره بأنه يتعلم منه، بخلاف ما عليه أهل الجفاء أو الكبير، الذي لا يظهر للمعلم افتقاره إلى علمه، بل يدعي أنه يتعاون هو وإياه، بل ربما ظن أنه يعلم معلمه، وهو جاهل جداً، فالذل للمعلم، وإظهار الحاجة إلى تعليمه، من أنفع شيء للمتعلم.

ومنها: تواضع الفاضل للتعليم عن دونه، فإن موسى - بلا شك - أفضل من الخضر.

ومنها: تعلم العالم الفاضل للعالم الذي لم يتمم فيه، ممن مهر فيه، وإن كان دونه في العلم بدرجات كثيرة.

(١) زيادة من هامش: ب.

(٢) في ب: لطريق.

(٣) بدلاً من الجملة: (أنه يفوته... كثير من العلم) جاء في ب: (أنه ليس بأهل لتلقي العلم) وجاءت هذه الجملة في: أ مشطوبة.



إِنَّمَا مَكَّنَّا لَكَ فِي الْأَرْضِ وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ سَبِيحًا ۖ فَاتَّبِعْ سَبِيحًا  
 حَتَّىٰ تَأْتِيَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجِدْهَا مَأْكُوفَةً فِي غِيَابِ جَبَلٍ وَجِدْ  
 عِدَّتَهَا قَوْمًا مِّنَ الَّذِينَ يَدْعُونَ أَنَا نَعْتَدُ وَإِنَّا نَعْتَدُ فِيهِمْ  
 حِسَابًا ۖ قَالَ أَمَا مِنْ ظُلْمٍ لَّكُم مَّرْعَبَةٌ لَّعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ۚ وَإِن رَّبِّي  
 يَعْلَمُ بِمَا عَدَا لَكُمْ ۚ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ  
 الْحَسَنُ وَسَقَوْنَا لِرَبِّهِ الْكَرِيمِ ۚ وَأَمَّا مَنْ كَفَرَ ۖ فَاتَّبِعْ سَبِيحًا حَتَّىٰ إِذَا  
 بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجِدَهَا مَأْكُوفَةً عَلَىٰ قَوْمٍ لَّيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا  
 سَبِيحٌ ۚ كَذَلِكَ وَفَدَّ لِحَطَايَا الْبَشَرِ ۚ فَاتَّبِعْ سَبِيحًا ۚ  
 حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجِدَهَا مَأْكُوفَةً قَوْمًا لَّيْسَ لَهُمْ دُونَ  
 مَقَامِهِمْ قَوْلًا ۚ قَالَ لَيْدًا الْقَرْنَيْنِ لِمَ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ  
 مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا  
 وَبَيْنَهُمْ سَبَكًا ۚ قَالَ مَآءُغْنِي وَيَوْمَ حِرَّةٍ يُؤْتِي يَوْمَ حِرَّةٍ  
 بَيْنَهُمْ سَبَكًا ۚ قَالَ لَيْدًا الْقَرْنَيْنِ لِمَ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ  
 مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ إِذَا جَعَلْنَا لَكَ آيَةً ۚ قَالَ أَنَّىٰ يُرْسِلُ إِلَيْهِ  
 ظُلْمًا ۚ فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ۚ

ربه على تمكينه واقتداره، فقال لهم: **﴿ما مكني فيه ري خير﴾** أي: مما تبذلون لي وتعطون، وإنما أطلب منكم أن تعينوني بقوة منكم بأيديكم **﴿أجعل بينكم وبينهم ردماً﴾** أي: مانعاً من عبورهم عليكم.

**﴿أتوني زبر الحديد﴾** أي: قطع الحديد. فأعطوه ذلك.

**﴿حتى إذا ساوى بين الصدفين﴾** أي: الجبلين اللذين بني بينهما السد **﴿قال انفخوا﴾** النار أي: أوقدوها إيقاداً عظيماً، واستعملوا لها المنافيخ لتشتد، فتذيب النحاس، فلما ذاب النحاس، الذي يريد أن يبلصقه بين زبر الحديد **﴿قال أتوني أفرغ عليه قطراً﴾** أي: نحاساً مذاباً، فأفرغ عليه القطر، فاستحکم السد استحكاماً هائلاً، وامتنع به من وراءه من الناس، من ضرر يأجوج ومأجوج.

**﴿فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً﴾** أي: فما لهم استطاعة، ولا قدرة على الصعود عليه لارتفاعه، ولا على نقيه لإحكامه وقوته، فلما فعل هذا الفعل الجميل والأثر الجليل، أضاف النعمة إلى مولئها وقال: **﴿هذا رحمة من ربِّي﴾** أي: من فضله وإحسانه عليّ، وهذه حال الخلفاء الصالحين، إذا من الله عليهم بالنعم الجميلة، ازدادوا شكرهم وإقرارهم، واعترفهم بنعمة الله، كما

من دونها ستراً **﴿أي: وجدها تطلع على أناس ليس لهم ستر من الشمس، إما لعدم استعدادهم في المساكن، وذلك لزيادة همجيتهم وتوحشهم، وعدم غمدهم، وإما لكون الشمس دائمة عندهم، لا تغرب عنهم غروباً يذكر، كما يوجد ذلك في شرقي أفريقيا الجنوبي، فوصل إلى موضع انقطع عنه علم أهل الأرض، فضلاً عن وصولهم إليه بأبدانهم، ومع هذا، فكل هذا بتقدير الله له، وعلمه به، ولهذا قال: ﴿كذلك وقد أحطنا بما لديه خيراً﴾** أي: أحطنا بما عنده من الخير والأسباب العظيمة وعلمنا معه، حيثما توجه وسار.

**﴿ثم أتبع سبباً حتى إذا بلغ بين السدين﴾** قال المفسرون: ذهب متوجهاً من المشرق، قاصداً للشمال، فوصل إلى ما بين السدين، وهما سدان، كانا سلاسل جبال معروفين في ذلك الزمان، سداً بين يأجوج ومأجوج وبين الناس، وجد من دون السدين قوماً لا يكادون يفقهون قولاً، لعجمة أستمهم، واستعجاب أذهانهم وقلوبهم، وقد أعطى الله ذا القرنين من الأسباب العلمية، ما فقه به السنة أولئك القوم وفقههم، وراجعهم وراجعوه، فاشتكوا إليه ضرر يأجوج ومأجوج، وهما: أمتان عظيمتان من بني آدم، فقالوا:

**﴿إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض﴾** بالقتل وأخذ الأموال وغير ذلك.

**﴿فهل نجعل لك خرجاً﴾** أي: جُعلاً **﴿على أن تجعل بيننا وبينهم سداً﴾** ودل ذلك على عدم اقتدارهم بأنفسهم على بنیان السد، وعرفوا اقتدار ذي القرنين عليه، فبذلوا له أجرة ليفعل ذلك، وذكروا له السبب الداعي، وهو: إفسادهم في الأرض، فلم يكن ذو القرنين ذا طمع، ولا رغبة في الدنيا، ولا تاركاً لإصلاح أحوال الرعية، بل كان قصده الإصلاح، فلذلك أجاب طلبتهم لما فيها من المصلحة، ولم يأخذ منهم أجرة، وشكر

تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً **﴿أي: إما أن تعذبهم بقتل، أو ضرب، أو أسر ونحوه، وإما أن تحسن إليهم، فحُجِرَ بين الأمرين، لأن الظاهر أنهم إما كفار أو فساق، أو فيهم شيء من ذلك، لأنهم لو كانوا مؤمنين غير فساق، لم يُرخص له في تعذيبهم، فكان عند ذي القرنين من السياسة الشرعية ما استحق به المدح والثناء، لتوفيق الله له لذلك، فقال: سأجعلهم قسمين: ﴿أما من ظلم﴾ بالكفر **﴿فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً﴾** أي: تحصل له العقوبتان، عقوبة الدنيا، وعقوبة الآخرة، **﴿وأما من آمن وعمل صالحاً﴾** فله جزاء الحسن **﴿أي: فله الجنة والحالة الحسنة عند الله جزاء يوم القيامة،﴾** وستقول له من أمرنا يسراً **﴿أي: وسنحسن إليه، ولنلطف له بالقول، ونيسر له المعاملة، وهذا يدل على كونه من الملوك الصالحين والأولياء العادلين العاملين، حيث وافق مرضاة الله في معاملة كل أحد، بما يليق بحاله.****

**﴿٨٩ - ٩٨﴾** **﴿ثم أتبع سبباً﴾** حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً **﴿كذلك وقد أحطنا بما لديه خيراً﴾** **﴿ثم أتبع سبباً﴾** حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً **﴿قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً﴾** قال ما مكني فيه ري خير فأعيتوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً **﴿أتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله نارا قال أتوني أفرغ عليه قطراً﴾** فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً **﴿قال هذا رحمة من ربِّي فإذا جاء وعد ربِّي جعله دكاء وكان وعد ربِّي حَقاً﴾** أي: لما وصل إلى مغرب الشمس كُرِّ راجعاً، قاصداً مطلعها، متبعاً للأسباب التي أعطاه الله، فوصل إلى مطلع الشمس **﴿وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم**

والأولياء شركاء الله يعبدونهم،  
ويزعمون أنهم يكونون لهم أولياء،  
ينجونهم من عذاب الله، وينيلونهم  
ثوابه، وهم قد كفروا بالله وبرسله .

يقول الله لهم على وجه الاستهفام  
الإنكاري المقرر بطلانه في العقول :  
﴿ أفحسب الذين كفروا أن يتخلوا  
عبادي من دوني أولياء ﴾ أي : لا يكون  
ذلك ولا يوالي ولي الله معادياً لله أبداً،  
فإن الأولياء موافقون لله في محبته  
ورضاه، وسخطه وبغضه، فيكون على  
هذا المعنى مشابهاً لقوله تعالى : ﴿ ويوم  
يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة  
أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ﴾ قالوا  
سبحانك أنت ولينا من دونهم .

فمن زعم أنه يتخذ ولي الله ولياً له،  
وهو معاد الله، فهو كاذب، ويحتمل -  
وهو الظاهر - أن المعنى : أفحسب  
الكفار بالله، المنايذون لرسله، أن  
يتخذوا من دون الله أولياء ينصرونهم،  
وينفعونهم من دون الله، ويدفعون  
عنهم الأذى؟ هذا حسيان باطل، وظن  
فاسد، فإن جميع المخلوقين، ليس  
بيدهم من النفع والضرر، شيء،  
ويكون هذا كقوله تعالى : ﴿ قل ادعوا  
الذين زعمتم من دونه فلا يملكون  
كشف الضر عنكم ولا تحويلاً ﴾ ولا  
يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة  
ونحو ذلك من الآيات التي يذكر الله  
فيها، أن المتخذ من دونه ولياً ينصره  
ويواليه، ضال خائب الرجاء، غير نائل  
لبعض مقصوده .

﴿ إنا أعدنا جهنم للكافرين نزلاً ﴾  
أي : ضيافة وقرى، فبئس النزول  
نزلهم، وبئست جهنم ضيافتهم .  
﴿ ١٠٣ - ١٠٦ ﴾ ﴿ قل هل ننبئكم  
بالأخسرين أعمالاً ﴾ الذين ضل  
سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون  
أنهم يحسنون صنعا ﴾ أولئك الذين  
كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت  
أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة  
وزناً ﴾ ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا

في الصور فجمعناهم جمعاً وعرضنا  
جهنم يومئذ للكافرين عرضاً الذين  
كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى  
وكانوا لا يستطيعون سمعاً ﴾ أي : إذا  
نفخ إسرافيل في الصور، أعاد الله  
الأرواح إلى الأجساد، ثم حشرهم  
وجمعهم لموقف القيامة، الأولين منهم  
والآخرين، والكافرين والمؤمنين،  
ليسألوا ويمحاسبوا ويجزون بأعمالهم،  
فأما الكافرون - على اختلافهم - فإن  
جهنم جزاؤهم، خالدين فيها أبداً .

﴿ ١٠١ ﴾ ولهذا قال : ﴿ وعرضنا  
جهنم يومئذ للكافرين عرضاً ﴾ كما قال  
تعالى : ﴿ وبرزت للحجيم للغاوين ﴾<sup>(١)</sup>  
أي : عرضت لهم لتكون مأواهم  
ومنزلهم، وليتمتعوا بأغلالها  
وسعيرها، وحميمها، وزمهريرها،  
وليدوقوا من العقاب، ما تبكم له  
القلوب، وتصم الأذان، وهذا أثار  
أعمالهم، وجزاء أفعالهم، فإنهم في  
الدنيا ﴿ كانت أعينهم في غطاء عن  
ذكرى ﴾ أي : معرضين عن الذكر  
الحكيم، والقرآن الكريم، وقالوا :  
﴿ قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ﴾ وفي  
أعينهم أغطية تمنعهم من رؤية آيات الله  
النافعة، كما قال تعالى : ﴿ وعلى  
أبصارهم غشاوة ﴾ .

﴿ وكانوا لا يستطيعون سمعاً ﴾  
أي : لا يقدرون على سماع آيات الله  
الموصلة إلى الإيمان، لبعوضهم القرآن  
والرسول، فإن المغض لا يستطيع أن  
يلقي سمعه إلى كلام من أبغضه، فإذا  
انحجبت عنهم طرق العلم والخير،  
فليس لهم<sup>(٢)</sup> سمع ولا بصر، ولا عقل  
نافع، فقد كفروا بالله وجحدوا آياته،  
وكذبوا رسله، فاستحقوا جهنم،  
وساءت مصيراً .

﴿ ١٠٢ ﴾ ﴿ أفحسب الذين كفروا  
أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء إنا  
أعدنا جهنم للكافرين نزلاً ﴾ وهذا  
برهان وبيان، لبطلان دعوى المشركين  
الكافرين، الذين اتخذوا بعض الأنبياء



قال سليمان عليه السلام، لما حضر  
عنده عرش ملكة سبأ مع البعد  
العظيم، قال : ﴿ هذا من فضل ربي  
ليلوني أشكر أم أكفر ﴾ بخلاف أهل  
التجبر والتكبر والعلو في الأرض فإن  
العم الكبار تزيدهم أشراً وبطراً .

كما قال قارون - لما أتاه الله من  
الكنوز، ما إن مفاقمه لتنوء بالعصبة  
أولي القوة - قال : ﴿ إنما أوتيته على  
علم عندي ﴾ .

وقوله : ﴿ فإذا جاء وعد ربي ﴾ أي :  
لخروج بأجوج ومأجوج ﴿ جملة ﴾  
أي : ذلك السد المحكم المتقن ﴿ دكاء ﴾  
أي : دكه فانهدم، واستوى هو  
والأرض ﴿ وكان وعد ربي حقاً ﴾ .

﴿ ٩٩ ﴾ ﴿ وتركنا بعضهم يومئذ  
يموج في بعض ﴾ يحتمل أن الضمير،  
يعود إلى بأجوج ومأجوج، وأنهم إذا  
خرجوا على الناس - من كثرتهم  
واستيعابهم للأرض كلها - يموج  
بعضهم ببعض، كما قال تعالى :  
﴿ حتى إذا فتحت بأجوج ومأجوج  
وهم من كل حذب ينسلون ﴾ . ويحتمل  
أن الضمير يعود إلى الخلائق يوم  
القيامة، وأنهم يجتمعون فيه فيكثر  
ويموج بعضهم ببعض، من الأهوال  
والزلازل العظام، بدليل قوله : ﴿ وفتح

(١) في النسختين : (وإذا الحجيم برزت) وهو سبق قلم .

(٢) في النسختين : له .